

سحر من الالبان

وهيبة قوية

معرض الكتاب ١٩٨٩

عبد الوهاب
بفلم

الطبعة الثالثة عشرة

الطبعة الثالثة عشرة

سحر من الالبان

مقدمة

تفيض هذه المجموعة القصصية بروح الدواعي الفنية التي
تنبئ فيها ألوان من الواقع الشعبي في رقة تعبير وبراعة
خيال ، فلم ينفك الدواعي يكرع من أيام شقوته وفنه الى ان
التحم بصميم مشاغل الناس وتطلع لهم في الاحياء الشعبية
فكتب (ادبا كبيرا) يتسم بجمال التعبير ونفاذه وبراعة الصور
وتألقها .

لهذا رأينا إعادة نشر هذه المجموعة تكميها للفائدة واحياء
لذكرى ادب كبير .

محمد عز الدين

الدواعي (علي)
- سهرت منه الليالي . ط . 13 - تونس :
الدار التونسية للنشر ، التونسية للطباعة وفنون الرسم
1987 . 21 سم ، 135 ص .

رقم الايداع القانوني بدار الكتب الوطنية

383 - نوفمبر 1987

● جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

1987

تقديم : عز الدين المدني

على الدواعجي الكاتب البائر!...

يجد الدارس الجامع لما خلفه على الدواعجي من أدب وقصة ومسرح وشعر عقبات كثيرة وكبيرة تصده عن سبيله ، ذلك أن أدبه مشتت ومبعثر في المجلات والصحف وحتى النشريات التي صدرت خلال الثلث الثاني من هذا القرن بتونس ، ولأن انتساجه المخطوط كالمسرحيات وبعض القصص وعدد من الرسائل ما زال كذلك في ملك عدد من أصدقائه الذين ما يزالون على قيد الحياة ... فكانك تبحث عن إنتاج أدبي مجهول لأديب غريب عاش في القرون الوسطى وفي بلاد غير بلادنا ! إذ أن على الدواعجي قد توفي منذ عقدين فقط ! (1) ...

وهذا الكتاب الذي يسر « نادر القصة » ويتشرف بتقديمه اليوم إلى حضرات القراء يتضمن ما استطعنا التوصل إلى جمعه ونشره من قصص مؤلفنا ، بقينا منا بأن هذا السفر هو مساهمة متواضعة في التعريف بعمل الدواعجي الذي قاسى مرارة « الغلبة » وضيق البوار ومحنة الفن طوال حياته ، وفي أن يتبوأ على الدواعجي المكانة اللائقة به في الأدب التونسي الحديث خاصة والعربي المعاصر عامة .

(1) يقول الدكتور غازي إن له رواية عنوانها : « شارع الأقدام المخضبة » فمن هو الذي يملك هذه الرواية المخطوطة ؟
(انظر قصص العرب المعاصرين) منشورات الديوان التربوي سنة 1960
ص 216 .

ونحن لم نتجسم بعض الصعاب لو لم ندرك أهمية هذا الكاتب القصصي وقية انتاجه . وفلا ، فان الدارس النزيه الذي يبحث في شؤون الادب التونسي المعاصر يتبين بوضوح وجلاء ان علي الدوعاجي هو الكاتب القصصي الوحيد الذي يمثل التمثيل الصحيح - فنا ومعنى - المجتمع الشعبي التونسي في الثلث الثاني من القرن العشرين ، وهو حامل مشعل الادب في تونس بعد أبي القاسم الشابي ، وهو « أبو القصة التونسية » (1) الحديثة بلا منازع : ...

* * *

ولد علي الدوعاجي بخاضرة تونس سنة 1909 وتوفي بها سنة 1949 . وكانت أسرته تنتمي للطبقة البوردوازية الصغيرة . وقد تعلم العربية والفرنسية في المدرسة الابتدائية . وبعد سنوات من ذلك عمل « قلقة » عند احد كبار تجار الاقمشة بالعاصمة . وكان في تلك الاثناء يعلم نفسه بنفسه ويعمل في مطالعة الروايات والداواوين بالفرنسية والعربية . ولم يطق صبرا ، فانقطع عن التجارة ، وصار يتردد على الجالس الفكرية والمقاهي الادبية . وقد اتصل بأبي القاسم الشابي ثم بالطاهر الحداد حسب ما اكده لنا الاستاذ المرحوم محمد الصالح المهيدي . وخالف ادباء عصره لا سيما زين العابدين السنوسي يوم كان يصدر مجلة « العالم الادبي » ، كما عاش طويلا القصاص محمد العربي ، والكاتب المسرحي عبد الحرزاق كريكمة ، والشاعر مصطفى خريف ، والفنان محمود بيسرم التونسي ، والصحافي الهادي العيادي . والكاتب الاجتماعي عبد العزيز المرووي ،

« التجديد » عدد نوفمبر 1962 - تونس : الدوعاجي فان الدلية الامتد
قوليك بكار .

و « شاولي الهيئة الاجتماعية » على الجندي كما كان يلقب نفسه بذلك ، ومحمد بن فضيلة صاحب صحيفة « الوطن » الهزلية ، وغيرهم من الشعراء والفنانين . وكانوا جميعا يجتمعون بمقهى « تحت السور » برض باب سويقة الشعب . وكانوا اخوانا في « البوهيمية » والادب والفن والفاقة وربما التقاسوا ، وباختصار في « اتراحهم وافراحهم » حسب تعبيره . وقد خلف علي الدوعاجي لوحات مشرقة جدا عن هذا « المجتمع البوهيمي » في صحيفة « الاسبوع » الاسبوعية (1) تذكرنا كما يقول الدكتور محمد فريد غازي برسوم الفنان عمار فرحات ذات الطابع المفوي الرقيق واللامح الانسانية العميقة (2) .

واكد لنا بعض اصدقائه الادباء : أن علي الدوعاجي كان دائم البشاشة ، ذكيا فطنا ، وصاحب نكتة لاذعة ، ولا يبسط يده ولا يمسكها ، مولعا باللهو ومغرما كذلك بالجد . لا مجال للشك في هذه الشهادة خصوصا اذا طالعنا قصصه ومقالاته واذا عرفنا انه كان مصورا كاريكاتوريا بارعا (3) .

لقد عاش علي الدوعاجي أعزب طموال حياته ، كعدد من اخوانه في « البوهيمية » . وقال لنا صديق له عرفه عن كتب : انه كان يحب فتاة يهودية من « حارة » تونس . ولاسباب اجتماعية ونفسانية ، تناول علي الدوعاجي مع عدد من رفاقه للخدرات ، وأمن في ذلك كل الامعان حتى نفقت رثاه فنقل الى مستشفى « الرابطة » ومات فيه بهرض السل يوم 27 ماي

- (1) تحت الصور - « الاسبوع » اعداد : 25 و 26 و 28 سنة 1946 .
(2) الانسانية في القصة التونسية المعاصرة - المجلد الاول من مجلد « اللغات » .
(3) انظر مثلا صور « جولة حول حانات البحر الابيض المتوسط » نشر « الشركة القومية للنشر والتوزيع » سنة 1962 .

ويعطينا على الدوعاجي رأيه في فنه فيقول :

« ان القصة في حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ ، وعلى شلوهذا هذا لا يستغربه القارى ولا يستنكره . وان كاتب القصة هو عرض الواقع البحت بكلمات واضحة نيرة ، وان : يسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة ، وعن وصف شعورة الشخصى وعن الوعظ الثقيل (1) » .
فهذه هي نظريته الجمالية في فن القصة التي نجدتها مطبقة في كافة قصصه ولوحاته . « فنزهة راقية » تبدو شاذة للقارى ، لا يجد فيها من الصور الكاريكاتورية المتنافرة ومن سلبية مواقف الشخصية الرئيسية فيها . لكنها ليست شاذة في الحقيقة ، بل هي أنموذج لجموعة من الشخصيات الناشزة والمواقف المنحرفة ، فلا يستغربها القارى بعد الانتهاء من مطالعتها ، ولا يستنكر ما جاء فيها من نقد مبطن مضمّن !
ضد البلورجوازية او الاشخاص الذين يتصنعونها ويتكلفونها .

وكانى بالكتور محمد فريد غازى قد فطن الى هذه القاعدة القصصية في فن على الدوعاجى فقال : « انه ادرك جوهر القصة » (2) !

وكانى كذلك بالاستاذ توفيق بكار قد ادرك معانى ذلك « الشلوهذا الفنى القصصى » عند الدوعاجى ، فقال : « فالواقع في رأى الاديب الحق معدن الادب يقطع منه الكاتب - بعد التخيسر - مادته الخام ثم يقبل على هذه المادة كما يقبل الخراف على عجنته ، ولا يزال يتدبرها بتأقب فكره تصورا وتصميما

(1) القصة في الادب العربى الحديث « الشريبا » السنة الثالثة عدد 5 ماي 1946 .

(2) قضية القصة التونسية « الفكر » السنة 4 - العدد 7 - افريل 1959 .

سنة 1949 (1) .

لم يعرف على الدوعاجى والده ؛ فلقد توفي أبوه وهو فى الخامسة من عمره . وكان محل عناية وعطف ورقة من قبل والدته التي توفيت بعده بضع سنوات . وكان على الدوعاجى يعيش عيشة الكفاف والتقشف إن لم تكن حياة الضيق والخرج ، اذ كان مورد رزقه الوحيد هو ما كان يتقاضاه من مال من « الأوقاف » على حساب ميراث خلفه له « الأجداد » .

إنى أحب على الدوعاجى ، لأنه فنان مؤمن بفنه الى حد الهوس . بل التقديس ، كما كان أبو القاسم الشاذلى مؤمنا بشعره ، والطاهر الحداد مخلصا لأفكاره الاصلاحية وآرائه التحررية ومعتقداته التقدمية . وقد اطلق على الدوعاجى على نفسه اسم « فلاذيمة » ذلك العبد الاسود الذى يعاهد العمال فى انشغالهم المرهقة بالترنم والفناء والموسيقى ليسلهم وليخفف عن كواهلهم انقال الحياة ، وقساوة الشغل واستغلال البلورجوازية والمستعمر لهم . « وان ذلك (الترنم) لهو عمل ايضا (2) ! » .

هكذا كان على الدوعاجى يؤمن بفنه ويخلص لادبه . وما اوجتنا اليوم الى ان نشاهد الكتاب والشعراء يؤمنون بفنهم كإيمانهم ويخلصون له كاخلاصه . وهكذا نرى ايضا ان على الدوعاجى فنان معاصر لنا بكل ما فى هذا التعبير من التجدد والتقدم ! .

(1) انظر مقال زين البادين السنوسي فى مجلة « الندوة » .

(2) انظر افتتاحيته التي كتبها فى العدد الاول من جريدته الهزلية « السرور » التي اسدراها يوم 30 اوت 1930 .

وبعداد الا ما يصفه الكاتب الاوروبى لوزار هذه المدن (1) «...»

الا ترى ان على الدوعاجى قد عبر فى هذه الفقرة الوجيزة عن المفهوم الذى نبحت عنه فى أدبنا الحديث ألا وهو الاصالة ؟

نعم الاصالة ! تلك هي القاعدة الأساسية التى تتركز عليها قصصه وفنه الذى ينم على سعة اطلاعه على القصة الغربية والقصة الشرقية .

لقد قال على الدوعاجى للدكتور محمد فريد غازى : (2)

« ان الكاتب الغربى الذى اثر فى تأثيرا قويا هو « جاك لندن » مما جعله يختار عنوان مسرحيته « راعى النجوم » المنشورة فى العدد الخامس من مجلة « المباحث » من عنوان رواية هذا المؤلف الأمريكى . »

ولكننا مع الاسف لا نعرف ما هي الروايات الغربية الشهيرة التى اطلع عليها على الدوعاجى فى عصره .

* * *

كان على الدوعاجى يعرف من الواقع التونسى الشعبى الغراف الواسع الكبير . كان يبنى به فنه القصصى . فلقد اولى اهتمامه بالطبقة الشعبية المعذبة فى طلب الخبز ، واعتنى بها بالغ العناية . وأغلب الظن انه كان يعطف عليها ويرق عليها كثيرا .

ومن يطالع المجموعة القصصية فى هذا الكتاب يلاحظ بدون شك « الخلق » و « المؤدب » و « العمة » و « الاديب البوهيمى

(1) مقاله المذكور

(2) الدكتور غازى مقاله المذكور .

ويعالجها بخالص فنه تمثيلا وتجسيها حتى يسويها بين تحفة أدبية (1) .

وهذا رأى جمالى كله صحة اذا علمنا ان على الدوعاجى كان يقول بعدم التعليق وبالتجرد والرغبة عن الفاء الدروس فى الوعظ . ذلك ان طريقته كانت تعتمد اساسا على استخدام « عين الكاميرا » كما يقول الدكتور محمد فريد غازى (2) على شاملة الكتاب الأمريكان ؛ واذا علمنا كذلك ان على الدوعاجى كان يبحث دائما عن العقدة !...»

ولا نحب ان يذهب الظن بالقارىء فيحسب على الدوعاجى مقلدا للطرق الفنية والمناهج الجمالية فى القصة الغربية الفرنسية منها والامريكية ، وغير عارف باختيار الشكل الملائم للمضمون ، ولا مدرك لانتقاء المضمون الضرورى للشكل ، بل كان على الدوعاجى من الادباء العرب القلائل الذين يؤمنون فى زمنه بالتشبع « بروح البحث » فى الميدان الجمالى والمجالى المضمونى . وفى هذا المعنى يقول :

«...» اننا بطول الوقت سئمنا (الرسائل الملقاة من الباخرة على الامواج) و (الهروب بعد منتصف الليل الى الجيزة

فى السورلس رويس التى تقطع مائتى كيلومتر فى الساعة) و (ابن العمدة الذى دعا البرنيسيس المجرية الى شراب الشاى على مائدته فتبتسم واصابع يدها تعبت بسيفارة تركية) وهذه (الاكليشيات) كما يقولون التى نجدها فى قصص العالمين والتى لو ابدلنا اسماءها الشرفية باسماء غربية لانطبقت

(1) « التجديد » السنة الثانية العدد الاول نوفمبر 1962 .
(2) مقال المذكور .

زمنه ، ويفضح من نفسه ايضا ، لانه عاش باثرا مغبونا مغلوبا
كقول حياته (1) .

ولقد صلق فيه قوله :

عاش يتمنى في عنبه مات جابولو عنقود

ما يسمع فنان القلب الا من تحت اللحد

عز الدين المدني

السكير » و « الملاك » و « القرباجى » و « خدام الحزام »
و « المجرم » و « الصانعة » الذين كان على الدواعج يعاشرهم
صباح مساء في « باب سويقة » و « نهج الكبد » و « الحلفاوين »
و « ربض باب الجزيرة » . هؤلاء هم الاشخاص السعيون الذين
كانوا يبتلون في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن
الشعب التونسى الذى قاسى الاستغلال البورجوازى
والاستثمار الاستعمارى ، فدخل في اعماقهم ، وسبر
ضماثرهم ، وعبر عن اتواقهم ورغائبهم بالسخرية اللاذعة
وانتهك المشائم .

ولشد ما أعجبتنى « سهوت منه الليالى » التى اختارها
« نادى القصة » لتكون عنوان المجموعة : هذه القصة التى ينفذ
من خلالها الدواعج ليصور لنا قلب امرأة تكتم جها لزوجها
ونغم ما تلاقيه من معاملة سيئة من قبله !... .

وكذلك « الركن النير » حيث يسمو الدواعج من
الاحاسيس الخصوصية الى المشاعر الانسانية في « يشرح » قلب
امرأة تتدفق في شرايينها الحبة كان يظن به الظنون !... .
وكذلك « أمن تذكر جيران بلدى سلم » اين التقط فناننا
بعدهته مشاعر امرأة اختلست دراهم معلودات لتمسح دموع
صبي جائع شقى !... .

عالم الدواعجى زاخر بالشاعر والقيم . ذنياه مكتظة
باحاسيس الانسان الممر القهور الذى يرجو بصيصا من النور
من شموع « العلم باخير » ! كونه مزدهم ايضا بالصور
الكاويكاتورية التى تتهم على بورجوازيى « نزهة رائقة » كما
كان يتهم موليار ، « فيضحك من النظام الفاسد القاتم فى

كتر الفقراء (*)

افضتوا الى الشاعر :

كان فيما مضى ولا أدري في أي أرض زوجان من أفقر الناس
لا يملكان شيئاً ، ولا شيئاً من الشيء . لم يكن معهما خبز
ليوضع في السلة (القفة) ، ولا قفة لوضع الخبز ، ولم يكن
لهما بيت يضعان فيه قفتهم ، ولا لهما أرض يبنيان فيها بيتاً .
كانا بلا أرض ولا بيت ولا قفة ولا خبز .

إنهما تعسان
كانا يشعمران بفقد البيت ، أكثر من فقد الخبز ، إذ
يستخدیان الحسنيين فواضل الخبز ، أما البيت

كانا يودان لو قضيا العمر صائمين في مقابل بيت يمكن
لهما فيه أن يوقدا نارا ، يوقداها من أغصان الأشجار ،
يصطليان ويتحدثان على وميض لهيبها .

في الحقيقة ، إن المهم في هذه الدنيا ، الأكرم من الغذاء هو

(*) قصة شعرية لشاعر ايطاليا الشهير غابريال دانيئيلو .

لكية بيت يأوى ، إذ بدون هذه الأربعة حيطان يصبح الانسار
والحيوان سواء

فى ليلة حربية ، ليلة عيد الميلاد • ليلة حربية فى وجهيهما
بالأخص ، أحسا فيها بتعاسة أكثر من ذى قبل •

ففى تلك الليلة ، كل الأدميين يوقدون نارا ، يصلطون على
لظها • وفى تلك الليلة الظلماء ، وفى الطريق العام ، كانا
يرتعدان من شدة القر • واصطدمتا أقدامهما بقط ، واحتج
القط على معاملتهما له بعواء •

كان هذا القط بئيسا أكثر بؤسا منهما • لا يملك إلا جلدا
يلم عظامه وقليلًا من الشعر فوق هذا الجلد ولو كانت
فروته خضبة لكان أحسن حالا ما هو الآن ولما ألتنصق جلده
بعظامه ولو لم يلتصق جلده بعظامه لأمكنه أن يصيد الفئران ،
ولما بقى حزيلًا كما هو الآن •

ولكنه لا يملك فروة ، ولا يملك جلدا أو عظاما • لهذا كان
بئيسا ، كثير البؤس •

كل الفقراء والبؤساء أسخياء ، وهم يتعاونون فيما
بينهم

.... أمسكا القط ، لا ليأكلاه ! بل ليعطياه قليلا من خبز ،
كانت استجده الزوجة • ولما أكل القط ذلك الجيز قصدا الى
كوخ متروك



وعند انبثاق الفجر ، وجدا نفسيهما أمام عيني ذلك القط
الذي اطعاه من خبزهما الباردة .

باتا في دفة من بريق عيني القط . . .

وقال القط : كنز الفقراء وهم ! . . .

لم يجدا في ذلك الكوخ سوى ثقب تنبثق منها أشعة البدر ،
عندما يسمح السحاب بذلك . . .

غابت أشعة البدر ، وغاب القط معها ، وبقيا هما جالسين
في تلك الظلمة المألوفة ، في هذا الكوخ المالك ، والذي يزيده
حلوكة فقد النار .
قال :

لو أمكن لنا إيقاد نار في هذا البرد فنصطلي ، وننسامر على
ضوئها .

لكن - - واسفاه - لا نار في الكوخ ، لأنهما تقسمان كل
التعاسة .

وأخيرا تقطنا إلى جمرتين تلمعان في طرف الكوخ ، جمرتان
ذهبيتا اللون . . . ففركا أيديهما سرورا ؛ وكان الرجل يقول
لزوجته :

- هل تحسين خلاوة الدفء التي أحس بها ؟

. . . يقول ذلك ، وهي تبسط يديها فوق النار . . .

- انفخ أنت قليلا .

فقال الزوج :

- كلا ، تدوم الجمرات بلا نفخ أكثر .

وجملا يتحدثان عن الماضي ، بلهجة ليس فيها أى حزن ،
لأنهما شعرا بسعادة ، وهما يتنفخان على أنفاس هاتين
الجمرتين .

وهكذا الفقراء يكفيهم القليل يسعدون به .
وأتما ليلتهما بين الحديث والتدفئة ، والجمرتان دائمتا
الوميض في تلك الزاوية المظلمة من الكوخ .

جبارني

كانت الشقة المجاورة لشقتي شاذرة . وكان يسكنها جماعة من الطلبة . وكنت أحمد الله جهرا وسرا يوم أن سمعتهم يعتزمون ترك البيت لصاحبه . وكما كان فرحي شديدا عندما رأيت عربة النقل مكتظة بالسجاجيد والمصاييح والقفاف على اختلاف ألوانها وأحجامها .

تخلصنا ، والحمد لله من مجاورة الطلبة . وسكنت الحارة من صراخهم وخصامهم وهراجهاتهم ، وهي متشابهة الضجة حتى أنك لا تفرق بينها مهما أوتيت من دقة السماع .

كنت أتقرب في شوق شديد لمقدم أجواي (الجدد) وقد أعلنتني صاحب البيت أنها (عائلة) لا تثير صراخا ولا تراجع دروسا ، ولا تربي كلابا .

لم يطل انتظاري حتى أقبل الساعي يحمل مكتوبا من صديقي (س) يطمئني بأنه في حالة نزاع ولم يبين في مكتوبه إن كان في حالة نزاع أو نزاع ، وبأنه ينتظرني على أحسن من الجسر . . .

لم يسمني إلا أن أعيد مطالمة المكتوب . ثم أن أعزم على زيارة هذا الصديق (المنازع) ، وصديقي هذا السيد (س) يقيم في مدينة بنزرت (والسفر إليها سهل بعد أن اخترت السيارة . ولم تبق إلا صعوبة إيجاد أجرة السيارة .

تركت البيت ، وتوقف الأجوار ، وورثة الحريم ينزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة القيور .

تركت كل هذا ، وذهبت أفتش عن رجل طيب القلب ، كريم اليد يرضى بأن يفرضني أربعين فرنكا - وهو مبلغ قافه كما ترون - . ونعلا ، وجدت ضالتي في شخص شيخ إسرائيلي يقيث الملهوف بغافض قدره خمسون في المائة .

كم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت صديقي (س) يتدأى من نزعه أو على الأصح من زكاه في « بار » من بارات مدينة بنزرت .

أعلنت الصديق بما ضحيت في سبيل نزعه الكاذب من مال ، وآمال ، فضحك من سخاوتي . وصفق مناديا الخادم الذي بقي في خدمتنا ليلة ويومين .

وهكذا ، لم يكنني القضاء أعني : القضاء والقدر من رؤية العائلة تنزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة القيور .

قال صاحب البيت : وهو يرفع حاجبيه إلى عمة البيضاء :

- يجب أن تدفع أو أن تترك البيت !

قلت :

- نعم سأدفع إن شاء الله .

قال :

- إن شاء ربى .. إن شاء ربى .. إنك لم تدفع القسط الأول من ثلاثة أشهر بدعوى أن مجاورة الطلبة تقلق راحة جنابك . والآن ما يقلقك ؟
قلت :

- ما لا أود قوله له ..! دفع القلوس !

قال :

- طبعاً ... يقلقك هذا ثم إنك لا تنزى امتلاك البيت بطريقة عدم دفع الأجرة ؟

قلت :

- لا أود امتلاك مثل هذا البيت المتهدم . ولئى والحمد لله من القصور فى جنة الخلد ما يكفى .

قال :

- والآن ؟

قلت :

- اسمع يا عم ... الآن وقد خلصتنا من ضجة الطلبة ، وجاورتنا هذه المرأة اللطيفة ، سأدفع ما يجب دفعه فأرجو الاحتفاظ بوصلك هذا الذى سأدفع قيمته بعد يسور ثلاثة أشهر على الأكثر .

فأتى أن أذكر أن جارتى التى سكنت الشقة فى يوم غيابه عن العاصمة كانت امرأة سويسرية ، على حد قول صاحب البيت ، . وهى فى الثلاثين من عمرها ، شقراء الشعر . وهى لم تنزل من القرية تحت مراقبة زوج غيور ، لأنها مطلقة ومفرومة ، والهة بأشعة الشمس الإفريقية .

يوم 12 ماي :

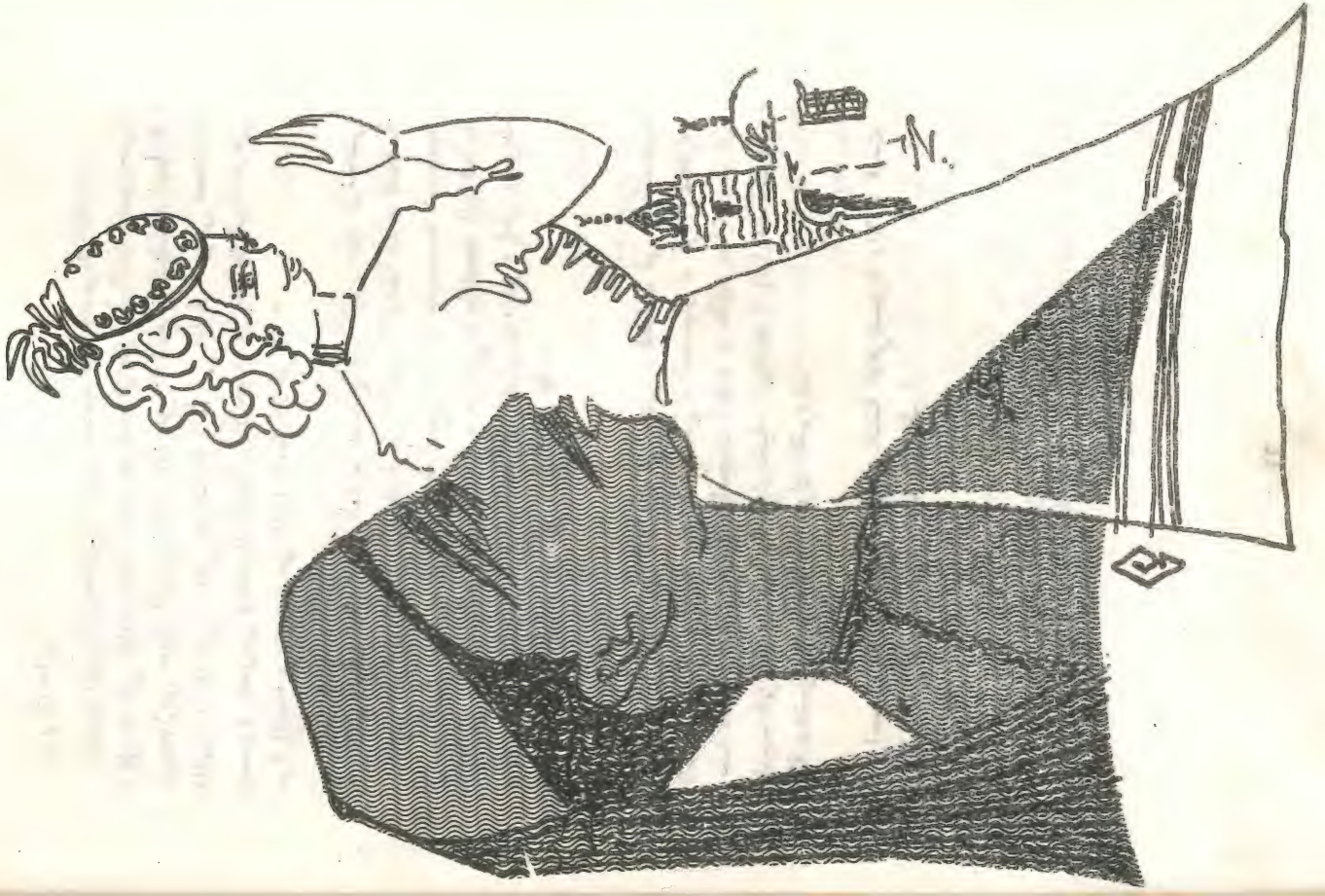
علمت أمس من جارتى أنها ليست بسويسرية الأصل . وكل ما فى الأمر أنها كانت مرافقة لرجل من أغنياء سويسرا عودها على حياة البذخ والانزلاق على الثلج والتطرق بلهجة ألمانية . أما هى ، فهى برتغالية مائة فى المائة . وهى معجبة بسيرة بشرى وبسواد شعرى الأجدد كل الإعجاب ، وهى تود اقتناء « منتو » من الفرو ثمنه 75 فرنكا .

اقتنيت لها هذا المنتو البدين صباح هذا اليوم بعد أن خفض صاحب الدكان اثنين فى المائة من الثمن . وهذا أعده صفقة رابحة - حسبما قالت السيدة - عندما استلمت المنتو ... ما أحلى نطق كلمة « مرسى » باللهجة البرتغالية (أعنى الألمانية) . أود أن أشتري لجارتى (منتو) آخر بشرط أن تعيد لى قولها « مرسى » بهذه الرقة .

يوم 15 ماي :

دعوت السيدة للجداء فى بيتى ، فقبلت فى بشاشتها السويسرية . وكانت معجبة بصحن « المصبان » كل الإعجاب . وهذا ما أثار غيرتى قليلا وأعجبت أيضا (بالكنويطة) بعد أن أطنبت فى تقدير قيمتها التاريخية . وقلت : إنها صنعت من مائة وعشرين سنة لأحد ملوك القيروان !

وأحمد الله على جهل والدتى اللفة الإفريقية . وإلا لما قبلت أن أزيد فى عمرها بمثل هذا البسط .



صاحب البيت :

- الفلوس !!! الفلوس .

أنا :

- ... الفلوس !!! .

صاحب البيت :

- ... تدفع أو أحجز !

أنا :

- وعلى أى شئ، يوقع حيزك ؟ .

صاحب البيت :

- على الأثاث طبعاً .

أنا :

- تفضل .

صاحب البيت :

- ماذا تعنى ؟ نعم سأحجز .

أنا :

- قلت لك تفضل ، ... ف... ض... ل... ، واحجز على

ما بقى . احجز الكانون والسفان ... ها ها ها ...

صاحب البيت :

- هذه الرقاعة التى يتحدث عنها الناس ! اعلم الرقاعة

وإلا فلا رقاعة فى الدنيا ! القسط الأول لا يدفع بعبوى أن

السيد تقلقه مجاورة الطلبة . والقسط الثانى ... لأن جنابه

متغيب عن الماصصة والقسط الثالث ... سأحاسبك ومستشرقك

البيت يحول الله صاغراً بعد أن أحجز . قلت سأحاسبك ...

وسأفعل !

כ

١ - لا تفعل .

صاحب السيرة:

وہم لا آفعل ؟ ستري ! !

آن

— من فائدتك أن لا تقفل لو قاضيتني لطالبك بتعويض.

صاحبت السن:

- ماذا؟ تعويض؟ وهل سقط عليك جدار؟

آن

— سقطت على أفعى ! أفعى سويسرية أو برتغالية
اعتصمت كل ما أملك وأنت السبب في هذا !

صاحب البيت : (فازعا) ...

أَفْ

- (وقد شجعتني فزعه) نعم أنت . ألم تقل إنها أرملة
مركز هولاندي ؟ ألم تقل يوم أن سألتك عنها : إنها ابنة ملك
المسامير ووارثته الوحيدة ؟ ألم تقل كل هذا والحقيقة هي ما
تبين أخيرا من أنها نصف مجنونة لا تملك إلا وجهها صقيعا ،
وشنطة التواليت . هذه ابنة ملك المسامير ! لم تترك لي من
البيت إلا مسمارا واحدا من وضع معامل والدها المحتوم .
وهذا المسامير يحمل غرابا « سقاط » . ارجوك الاحتفاظ
بوصلك هذا الذي سادفح قيمته بعد مرور ثلاثة أشهر أخرى .
هذا إذا لم تسكن الشقة المجاورة حارة لطيفة من هذا العمار .

بي. بي. شاطي، محام الادف

كانت عربة القطار مكتظة بجسم امرأة من الوزن الثقيل والنقل جدا . ومما زادها ثقلا أنها كانت ترتدى ثوبا أحمر ، وتلبس شفاهها وأظافر من نفس اللون . وكما أنها ملأت العربة بلحمها فقد ملأتها أيضا بحركاتها ، وبابنها . ولا شك في أن ابنها سمين كبير الرأس ، ويلبس اللون الأحمر . وأظن أن لبس الأحمر ورائي مثل السمينة في هذه العائلة . وكان الصبي يصرخ صراخا كأنه بكاء ، ولكنه ليس ببكاء . وكل من في القطار تضايق من هذا الصراخ . وود لو أرضى هذا الصبي بما طلب ، فتكاثرت عليه الأسئلة : هذا يسأله عما يريد . وذلك يرقصه على ركبتيه . وذلك يربت على أنفه ، والصبي يزوداد غضبا ويزوداد صراخا ، وكأنه يصرخ للصراخ نفسه . لا يريد بذلك سندهوشا ولا زمامير . الحق لقد تعطلت هذا المثنى أربعة « أدرج » ثم شعرت أني أسرفت كثيرا في تحمل ما لا تطاق فهاجرت الى عربة أخرى .

لم أر أحدا في بادئ الأمر ، فدخلت مطبخنا آنسنا . حتى
اجتريت . البروكس . الثاني ، وهنا لقيت شابا وحيابة أو ما
نسميه في لغتنا الكلاسيكية (بريمو وجوليت) (زوميو شاب
له منق ورسوم منمنمات ، كشمر الضحوي . طوبل الأقب

كانه شاعر . وجوليت صقلية ، ربة القامة ، تلبس اللون الأصفر الفاقع - كنا تلبس الملوك فسرو الهرمين - وكانا يتكلمان همسا ، ويستقيضان عن الفوغاء بكثرة حرركات أيديهما ، فروميرو يرفع يديه الى أعلى ثم يمد يده اليسرى الى الأمام . كانه يقول : « أحبك وأقتل أباك بخنجر إذا ... » . وجوليت تدبر أصابعها حول بعضها كأنها تجيبه : « ساطرظ لك مندبلا تقتخر به أمام نائب القنصل » .

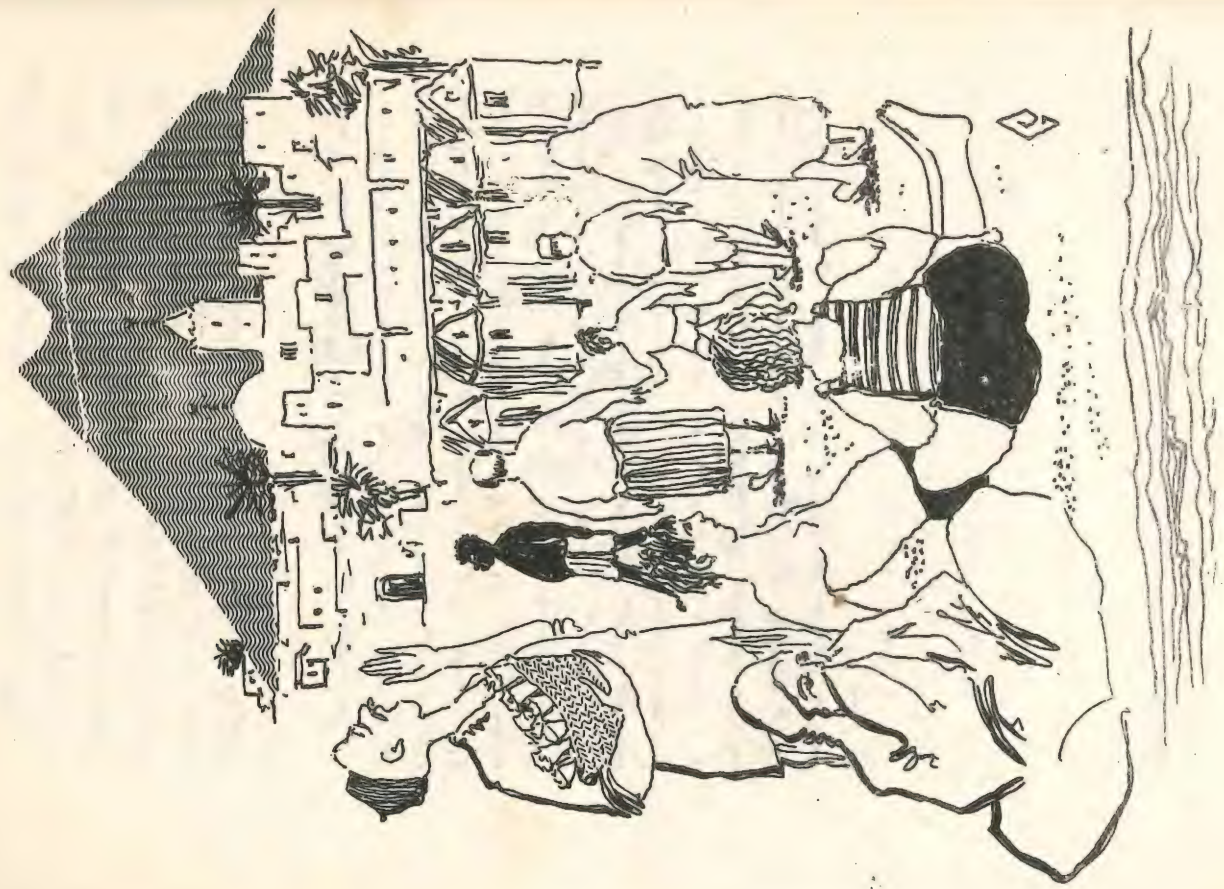
هذا لا يطابق ! ؟ أجالس غاشقين ولا أرى ولا أسمع منهما إلا رموزا ... لم أركب القطار لهذا ! نعم وكنته ليحملني الى حمام الأنف . والمهم أن أصل الى حمام الأنف فلاترك العربات كلها ، وأتم طريقى جالسا على سلم العربية ، من الجهة اليمنى . أتفرج على أعمدة التلفراف وأحسها اذا تكنت من ذلك .

من المحطة الى الشاطىء أمشي مسرعاً للتفرج على المستبحين . والمجيب أنه ليس بحمام (الأنف) بل هو حمام بقية الجسم أيضا من اقتاذ ونهود ، و ، و ، و ...

كان الشاطىء ملأنا بباعة الكاكاولية واللينوناسة ، والمستبحين ، والملاحف البيضاء البديمة .

باعة اللينوناسة والكاكاولية معروفون من الجميع بوساختهم ورقاعتهم . والمستحمون رجالا ونساء ، خالعون ملابسهم وحياتهم ، وهم مرة يحسون الحر فيرتسون في الماء . واذا أحسوا البرد في الماء انبطحوا عارضين أجسامهم لأشعة الشمس : فهم بين البرد والسخانة طول يومهم .

والعادة أن يستحم الانسان يوما كاملا ليمتسر مستحمها داخليا « انثرون » . أما من ينزع ليلبس بعد نصف ساعة على الأكثر فهو مستحم أو مستحم خارجيا « إيكسثرن » .



المصباح المظلم

- 1 -

كان ثلثة من الصبيان يشتمون على قذف الحجارة بخرطوط المطاط ، أصاب أحدهم الهدف وهو « أنبوية » ، المصباح الكهربائي . ثم تفرق شملهم بأذان المغرب الذي جمع جميع التفتاة للصلاة في مسجد الحومة .

أضيت مصابيح الشوارع إلا هذا المصباح المكسور ، وبقي كاشجار الحريف . وكان رذاذ المطر يزيد هذه النقطة المظلمة من الشوارع كآبة .

كان بجانب هذا المصباح دكان حلاق عليه « يافطة » كتب عليها باللون الأحمر « الحلاقة المصرية » ، ورسم بجانب الكتابة رمز الحلاقة « الموسى » ولقد فهمت بعد علامة اللون الأحمر صناعة الحلاقة .

(*) هذا العنوان اخذناه من الجزء الثاني من هذه القصة التي لم نغش على يقيتها (نادي القصة) .

والملاحف البيضاء شيء آخر . الملاحف هذه مخلوقات اتبعن سنة الجادات فأسدلن على أجسامهن الناعمة ملاحفهن . واتبعن سنة الوقت فخرجن الى الشاطئ ينتقدن ترجيل شعور عمرو وكي بنطلون زيد . وهذه تنسى أنها ملتحفة فتريك وجهها وسيمها . ثم تتذكر فتخفي داخل ملحفتها بعد أن تبعث الكهرباء في أجسام أربعة من شبان الشاطئ كانوا يراقبونها من نصف ساعة .

كنت أسير في هذه الطريق ، وأنا أتخيل كل هذه الأجسام في ملابسها الشرقية الفرناطية ذات السراويل الواسعة . ونحن يرقصن رقصة البطن اللطيفة في إحدى قاعات الحمراء . وإذا بعصفور يتهم في مناورة جوية ؛ فرمى على شاشيتي قذيفة لم أظن لها ، لولا ضحك المارة وإشاراتهم الى رأسي الكريم ، ففهمت بشعوري أن في رأسي شيئا أثار فضول كل هؤلاء الأفاضل ، ونزعت الشاشية فوجدتها مزدانة بقذيفة العصفور اللعين . من من الشعراء قال عن العصفور إنه ملاك ؟ لو وجدته لأريته إبليس . . . لم أستحسن البقاء بحمام الأنف أو « البسين » بعد أن عرف أنني أحمل على رأسي « نيشانا » ، لماورات المصافير فكررت راجعا . ومن فضل الله وجدت القطار خاليا إلا من رجل عجوز يعرف معرفة جيدة أسماء أصحاب القيلات المزروعة في طريق القطار من حمام الأنف الى تونس .

وكان تكتته هذه أعجبت . فأخذ يعيدها بصوت عال لعل
الأنثى الواقعة بجوار دكانه تسمعه . ولا بد أنها سمعته ما لم
تكن صماء ، ثم أعقب ذلك بضحكة عالية ، وهو ينظر للمرأة
ويمشط شعره الملل . وأطال النظر في صورته المنعكسة على
المراة لأنه وجد للمرة المليون وجهه وسيما جذابا ، خصوصا
شاربيه السوداوين القائمين الى فوق .

فلماذا لا يخرج لهذه الواقعة فيجرب جاذبيته فيها ؟
وفلا يخرج صاحبنا للشارع ، وأجال نظره الدقيق الذي لا
يخطئ الشعرة « لكن الأنثى ذهبت وفلت الصيد فاعتناظ
وأخذ يسب المطر والشعر والنساء ... »

- 2 -

خرج المصلون من صلاة العشاء ، واضعين برانيسهم على
رؤوسهم ، يسرعون الخطى الى دورهم . ومروهم أمام الحلاق
ذكره وعده لصديقه اسماعيل في قهوة « الحاج علي » إثر صلاة
العشاء ؛ فليس جيبته ، وسوى شاشيته على رأسه ، وأطفأ
المصباح الملحق في سقف الدكان . ثم أخذ يفتش في كل جيوبه
عن الفتاح حتى وجده أخيرا في حقة القصدير حيث اعتاد
وضعه . فأغلق الباب . وفتح سيجاته . واستعد للذهاب .
والنفت فجأة الى ناحية المصباح المظلم ، فرأى المرأة واقفة .

قال في نفسه : « هي نفسها التي كانت واقفة ؟ لا . تلك
ذهبت بدليل أنني لم أجدها عندما خرجت للمرة الثانية ... »
لكن من هذه يا ترى ؟ وما سبب وقوفها بجانب المصباح
كالأخرى ؟ ... ما علم كل هذا منها ،
قصدها وابتاعها :

- مساء الخير يا لله !

خرج الحلاق من حانوته فرأى المصباح مظلما ، ورأى يافطته
لا تقرا في ظلام هذه النقطة من الشارع . فخلعها من موضعها
وأدخلها داخل حانوته . ثم التفت الى المرأة ليصلح من شاربه
الأسود القائم الى فوق بالشكل الذي تسميه المجنات من نساء
القرن الفائت بمعلق القلوب . هنا سمع الحلاق وقع خطي في
الشارع المطر المظلم . وتطلع ككل فضولي لا يريد أن يمر أمام
دكانه إنسان بدون أن يعرف من هو وإلى أين يقصد . لكن
ظلمة الشارع حالت دون استطلاع الفضولي . فوقف في عتبة
المحل .

ودفعه الاستطلاع ، فتخطى خطوات نحو المصباح ، فرأى
امرأة ملتحفة بيضاء ، واقفة ، تنظّل تحت ستارة دكان بجانب
المصباح .

كان رذاذ المطر قد فعل ، فيه شعر الحلاق ما لا تقبله
« الفرسيون » وأحس صاحبنا بهذا . فبقى حائرا بين
الدخول لترجيل شعره ، وهو يفار عليه ، ويعرضه كأنه يودج
لصناعته ، وبين معرفة هذه المستندة الى المصباح ؟ ومن
يدري ... ؟

فربما تعرف إليها وأدخلها دكانه الأنيق الحاوي من حق
« القهرة » وقوارير العطر ما يستهوى قلب أشرف بنات حواء .
وليس كالطبيب في استهواء قلوب النساء . من يدري ... ؟

أخيرا ، غلبت عليه طباع (الـ ...) فدخل دكانه .
واستعاد وقتته « الكليشي » أمام المرأة ، وأخذ يسب غلامه
الذي وضع المشط في غير محله .

« هذا الكلب ابن الكلب ، أقول له وأعيد : ضع المشط على
اليسين ، واللعين لا يضعه إلا على الشمال ، ولا يفصل إلا بخلاف
ما أوصيه به . لكن طله « شلاوي » يستعمل اليسرى مكان

تلعب وسط الظلام .
- الله يبارك قبلت تنفضل .

- 3 -

كان صاحبنا خبيراً بالمطور حسب صناعته . ولكن رائحة
عطر هذه المرأة لم يعرفه . فيجعل يسأل نفسه : « هل هو
عطر « الفرفيل » أم « ليلة باريز » ؟ » وأخيراً سألها :

- بالله آتش اسم ها الريحه اللى عندك ؟
- ماو اتفقنا الكلام . لا ؟
- لكن أنا صنعتى حجام حيث نعرف اسم ها الريحه
بسر !

- من كل مشوم نواره !
- عظيم واشكون شرها لك ؟
- اشنوه ؟
- قتلك مئين شريتها ؟

- هذا ما يهمنى واسكت وإلا خلينى نوللى على ثنىتى ؟
- سكت . الله يبارك كيما تجييش نكلك نسكت خير .
والناس اللوله قالوا اذا الكلام ففصة السكوت . من كبل
مشوم نواره ، اسم حلو آتش عندى ما نقول ، وريحه طيبة
شميتها من اللى كنت فى حالوتى . وعليت الروايح اللى عندى
الكل . وقت اللى كنت واقفه تحت الفناز ما افهمتى
الثوه اشنيه وقتك . لا هانى سكت .

- ايه اسكت . وانت اسم الله العظيم تشدد ما تسيب .
- صلبى عانى ؟ آتش باشى تقول .
- انا بقتك اسكت وانت تقلى آتش باشى تقول ؟

- مساه الخير .
- تجيش نطيك بسحابتي ، اطفى الششاء حاصرتك ،
نوصلك وين تقصد ؟

- المقصود ربي !
- معلوم ! لا مقصود غيره . لكن وقوفك تحت الفناز
والششاء قالت شد يدك ، والدنيا ظلام شىء يخوف !!!

- الخوف من الله !
- ما فيهبش كلام ! الخوف من الله ومن اللى ما يخافش من
الله والدنيا مليانه بيهم .
- هانى قاعدة نشوف .
- فاش ؟

- فى اللى الدنيا مليانه بيهم . ابدأ بيك أنت لا باس تكلم
فى ؟ ومئين تعرفنى ؟
- المرفه لا محاله ما نعرفكش لكن نملوها معرفه
جديده .

- برا على روحك وخي يهديك ، وخلينى لاهيه فى همى .
- تجيش نعاونك عليه ؟
- اشكون هو ؟

- لا . هنك اللى لاهيه فيه (وشجعه سكوتها فاتم) رانى
ما عنديش حتى نيه كان فعل الخير . اسبح كلامى نطيك
ممايا
- مليح لكن بشرط ما تفضيقش وما تكلمنى حتى
كله .

قالت هذا ، وهى تهدد بالطبق بنصر رآه فى يد امرأة ؛
فاجاب الحلاق ، وهو ينظر الى يدها والى الماسة الثمينه التى

- لا ... على خاطر ريتك واقفه . ومن بعد عاودت حزرت
ما لقيتكش ... وبين جيت مروح نلثاك وليت !

- هز يدك على كتفي !

- طيب ! ... لكن نحب نعرف !

- أوووفه !

- وبين ماشيه ؟

- لواش ؟

- باش نعرف أما ثنيه نقصدوها .

- السيخه .

- سيخه ترنجه ؟

- لا سيخه باب الجزيره .

- ايوه خلينا التنيه ورانا لو كان عرفت رانا خذينا ...

- يزي يزي هيا نوليو ... لو كان نشدتني على هذا اللول
زانا وصلنا .

رجعا الى نهج الباشا ثانيا . وما كادا يسيران بضع خطوات
حتى اشتد المطر ، فالتصقت به المرأة وأحس بحرارتها . وجعلا
يسيران ، وكأنهما شخص واحد حتى مررا بالاصباح
الكهربائي ... وبدكانه فسأله ، وهي تختنق بكلماتها :

- عندك دار ؟

- اما لا نبات تحت المحيط كي القطاطس .

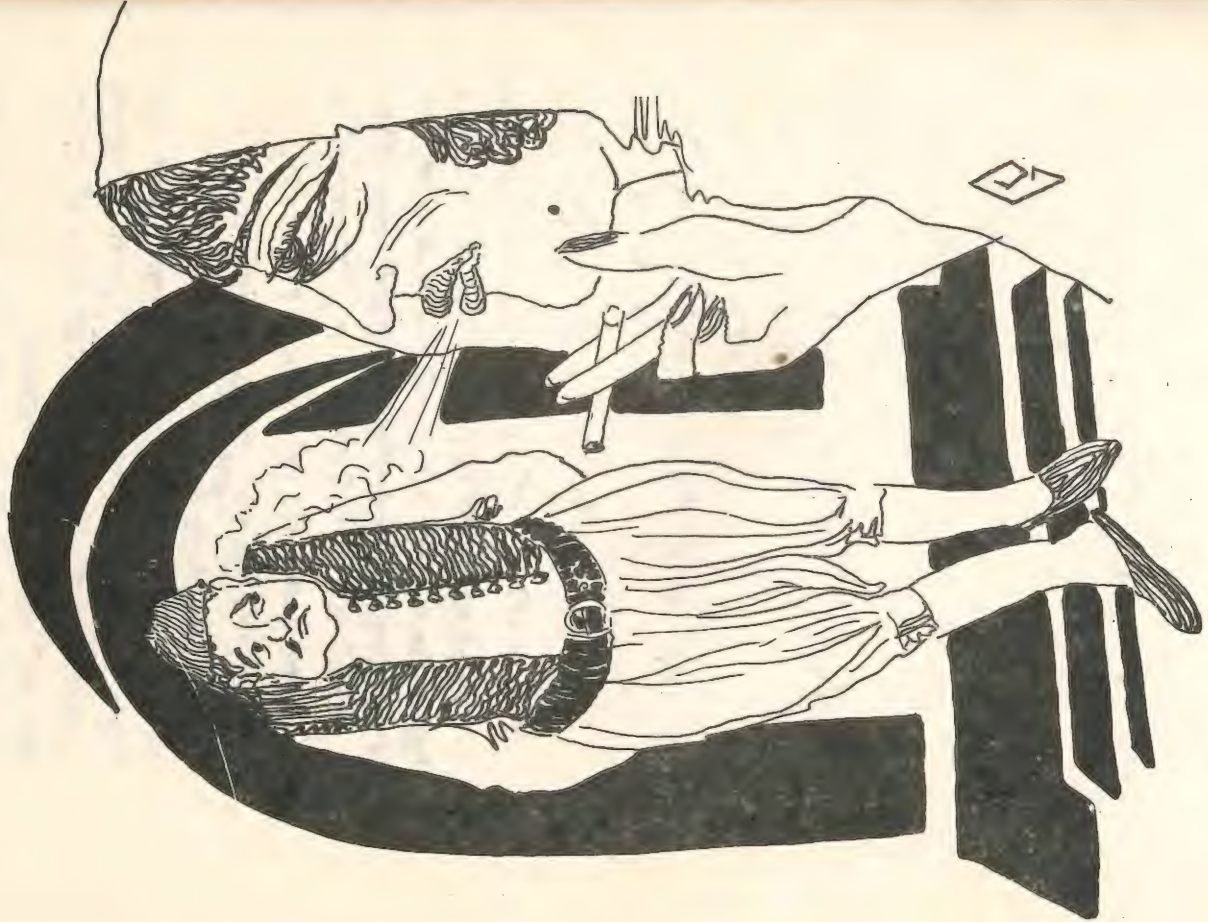
- تقد تنجم دخلني نبات في دارك لكن أنت متزوج ؟

- الله يلطف ما زلت عازب رأسي رأس الوالدة .

- نمشي معاك لدارك بشرط ما يراني حتى حد ! واللي

نقلك تعمل فهمت ؟

قالت هذا ، ولو أمكن أن يرى وجهها لرأى دمعة كاللؤلؤة
ترقرقت من عين المسكينة . لكنه أجابها ضاحكا :



راعي النجوم

كان (هو) رجلا عاريا ، وكانت (هي) امرأة عارية إلا من
ظلام النفاق . (هو) ينظر فلا يرى شيئا . و (هي) تترقب
(متى تراه) على الجسر . وكأننا نقل عليها هذا الظلام ، وهذا
الضئس ، فآخذت تحادثه :

هي - قل .. ألسنت أنت .. راعي النجوم ؟

هو - أنا هو .

هي - ما أتبعك وأنت كاهلك حتى جعلك لا تراها ؟

هو - أتبعني الراحة .

هي - وما أنت صانع الآن ؟

هو - (لنفسه) ما أكثر أسئلة المرأة !! (لها) اني لا
أجد الوقت لنألا أصنع شيئا .

هي - أعرف « الأبدية » ؟

هو - ذاك ما لا أزال أذكره .

هي - أكتب ...

هو - ألا تريد الظلام يشملنا ؟

هي - أنا لا أرى الظلام في الظلام !! ولكن غن .

- على الرحب والسعة ... هذى نعمة غير مترقية (وهي
عنده أجمل عبارات المجاملة) وأرعشتها .

كانت متكئة على جانب الكنبه . وكان جالسا على كرسي
قبالتها . فسألته عن الساعة . وبعد أن أعلمها أنها الثانية
بعد منتصف الليل ، أخذت سيفارة وأشعلتها . ثم رفعت
بنظرها الى صاحبها الجديد وقالت :

- تعرف رائى ما نيش كيف ما تسخيلنى ...

- العفو العفو - وأنا آش سمعت من فى ؟

- موش لازم نسمع من فىك ... أما حببت ثقلك اللي أنا
جيت معاك ما نيش عاشقه فى عينيك ، ولا فى مشطه شعرك ،
ولكن أنا عملت عملتى باش نرد الفازيته وناخذ بنارى .

هنا صاح الحلاق مصعوقا :

- بالنار من ... متى ...؟

هي - ليس في استطاعة الفقير أن يختار أوقات عبادته .
 هو - وهل كانت أمك فقيرة ؟
 هي - (في خيلاء) : نحن نتوارث الفقر في عائلتنا منذ الأجيال الأولى .
 هو - عجيب ... ولماذا ؟
 هي - ما هذا الاستطلاع ؟ تود أن تعلم كل شيء ؟
 هو - كل شيء ! ما أفخم هذا التعبير ... الواقع أني أجهل كل شيء سوى : لم تتوارثون الفقر في عائلتكم ؟
 هي - ليس لنا مكان يحفظ ثروتنا .
 هو - أعطينها .
 هي - ستقتلني ضحكا (تضحك) أعطيك ما لا أملك ؟ وأنت أليست لك ثروة ؟
 هو - هيه ! كان لي كنز كله أحجار ثمينة .
 هي - قل مقطعا ، كالوجود خلف هذا الجبل .
 هو - قلت لك أحجار ثمينة .
 هي - هنا ! كل الأحجار ثمينة ما دامت تقينا الحر والقر .
 هو - كانت أحجار كنزى آمن من تلك
 هي - ما تبني بها ؟
 هو - لا تصلح للبناء .
 هي - ولماذا ؟
 هو - لأنها ثمينة .
 هي - وما جعلها ثمينة ما دامت لا تصلح للناس ؟
 هو - لأنها نادرة تبرز كما كانت تبرق عيناك عندما ينتهي .
 هي - هذا مما لا أفهمه . وأين كنزك الذي لا يصلح لشيء ؟

هو - أتودين أن أضحك ؟
 هي - أود ذلك ككل امرأة ...
 هو - إذن ، أعيريني إبرة ... أخذك بها .
 هي - (تضحك) ألا تستطيع ذلك بدونها .
 هو - أستطيعه لو كنت على خبث الآخرين .
 هي - (تضحك) أرى أنك لا تستطيع شيئا مطلقا مثل الآخرين وخبثتك هذه دفعتك الى التطلع ...
 هو - (مقاطعا لها) لا تذكرى النجوم من فضلك ... قبل أن تظهرى فمك من الضحك .
 هي - هذا حقيق . إن الضحك أظهر من الطهارة نفسها .
 هو - (لنفسه) : يوجد ضحك ... وضحك ... (لها) أتضحكين مني أو على ؟
 هي - وهل ثمة فرق ؟
 هو - أو أنت مثلهم لا تعنين بالفروق ؟
 هي - أنا لا أعتنى إلا بك (النور ينير الظلمة) وما أنا أراك .
 هو - هذا برق ... ما هذا بنور .
 هي - هذا الفجر .
 هو - هذا الفجر ... ما أجمله ! .. لم أرك قبل الساعة .
 هي - (يائسة) : هو ينظر الفجر ولا يراى أنا ؟!! نعم هو ذا الفجر كما وصفته لي أمي .
 هو - أمك ؟ وهل رأيت أمك فجرا ؟
 هي - نعم في ليلة وكانت صائبة ...
 هو - تصوم ليلا ؟

هو - أودعته الأرض ولكنى غفلت عن وضع علامة له ،
وضاع تفتيشى سدى ..
هى - أتود أن أفتش أنا لك عنه ؟
هو - ألا تستكتين ؟
هى - أو تستكت المرأة ؟
هو - ما أجمل هذا النور .. ما أجمل كون هذا النور ..
هى - النور له لون ! وهو فرح به ، لا يذرى المسكين أنه
على هذا النور سيكتشف الغرباء مكان الكثر ، وسيحتفظون به
خصوصا إذا كانت لهم إمكانية يضعونه فيها .
هو - ليكن .
هى - ما هذا الشفوذ ؟
هو - الحقيقة أنى كذبتك خير الكثر .
هى - ولم كذبتنى ؟
هو - لأعجبك .
هى - تعجبى .. وأنا أعلم أنه ضائع ؟
هو - الناس تعجب حتى بالشروة الضائعة وباصحابها
الذين اختاعوها .
هى - ولم أطلعتنى على الحقيقة ؟
هو - لأنى ذو ضمير .
هى - وأين هو هذا الضمير ؟
هو - فى ... ثم لأنى لا أحسن الكذب . أود أن أعجبك
كما أعجبنى أنا هذا النور .
هى - لكذلك لست بنور . ثم أنت لا تعجبنى إلا إذا تركت
التطلع لرؤية النور ، ورعاية النجوم . أنا أريدك وقعا قليل
الحياه ، صقيقا تطلع فى جسدى بنظر اناك المتهبة ، حتى تحمر
وجنتاى غيظا منك ، وخجلا من نفسى . أرعنى أنا .

هو - لا .. وإذا .. أضعتك ساغناظ أنا بدورى .
هى - ولو .. ليس لى أهل فلا تخش مطالبة .
هو - تطالبينى بك نفسى .
هى - أجمدها .
هو - إلا إذا وعدتنى بأن لا تضيعينى .
هى - أنا لا أستطيع أن لا أضيع ... (يعودان الى
الصمت) (بعد لحظة) مالك صامت ؟ حدثنى املا نفسى بفراغ
فرترتك ...
هو - (لنفسه) هى ككل من عرفتهن .. (لها) وما
الضايه ؟
هى - وهل ثمة غايه ؟ إن الغايه عندنا هى الواسطة .
هو - الغايه هى الواسطة ؟ هل فعل شيئا لا لشيء ؟
هى - للعمل ذاته . كان كل من الجنسين يحب الآخر لبقاء
الجنسين . ألا ترى الآن أننا نتحاب للحب ؟ كمن يأكل للذة
المضغ والبلع ؟ هكذا الانسان الراقى يعمل لنشوة العمل .
هو - هذا واقع كان يجب أن لا يقع .
هى - نحن لا نبحث عما يجب . وإنما نتبع سنن البشر .
هو - أنا لا أحب ذلك .
هى - أرايت انك أنت الذى لا يود أن أعجب به وأكبره .
هو - ماتريدن أن أصنع لك ؟
هى - اسرق . اسرق من أجلى شيئا ؟ اسرق لى سوارا
أزين به موصى ورصعه بأحجارك الثمينه .
هو - لا .
هى - ولم ؟
هو - أولا لأنى لا أملك من الأحجار إلا كذبنى . ثانيا لأنك
تسسين .

هي - أنا ...
هو - ألم تذكرى أنك لا تملكين مكانا يحفظ لك اشياك ؟
هي - ولو . اسرق لى ، وسأحتفظ بسوارك ما استطعت .
هو - أنا لا أسرق .
هي - حتى لمشاركتى فى جرم ؟ حتى لمشاركتى فى اقتراض
ذنب مشترك بيننا . أنت لا تجبنى .
هو - أنا لا أود أن أسرق . وأخشى أن اصبح مدمنا على
السرقه .

هي - ولو ...
هو - وبحكم الادمان اسرقك أنت بدورك .
هي - اسرقنى ، أوه اسرقنى الآن إن شئت . نحن لا
نطلب أكثر من ذلك .

هو - ؟!!!
هي - ألا تعلم ان وراء ذلك الشهرة ؟
هو - لا أود ذلك سرقة إنما .. ما ألطف جسمك ... ألا
تغيرينى إياه ساعة ، أو أقل من ساعة ؟
هي - (فى حدة أقل من ساعة) ، هوه . (تلطمه لطمة)
خذ . يا وقع ! يا قليل الحياء ! ألا تخجل من أن تفتاح مثلى
بمثل هذا ؟
هو - إنى لم أقل شيئا اذا ... (يضع يده على مكان
الصفعة) .

هي - أعيرك نفسى يا وقع ! يا وحش ! ، نحن نهب
أجسامنا هبة (لمن) يتملكها غضبا ورضى . ولا نغيرها ، هذه
الخطيئة الكبرى ، هذا الذنب الذى لا يغفر : نحن لا نسلّم
أجسامنا إلا هبة ، أو تسليما لمقتصب ، ذلك ما أمرتني به
أُمى ، أنا امرأة شريفة .



للمفتصب وذلة للمفتصب ؟ وأنت مخير بين عز السرقة ،
وذل السؤال ، ووحشية الاغتصاب !

هو - مسكينة !

هي - أنا ؟

هو - لا ... أمك التي علمتك هذا ؟

هي - وأنت ما علمتك النجوم ؟

هو - أسامها .

هي - وهل تأتيك اذنانيتها أو حتى تجيبك جوابا ؟

هو - أسيها للمعرفة لا غير .

هي - ما هي المعرفة ؟

هو - السمو .

هي - اليس هو الغرور والأناية ؟

هو - لكن لولا الغرور لاحتقر الانسان نفسه .

هي - أنت تحتقر الكذب على الناس . ولكنك تكذب
نفسك بنفسك ، ولا ترى في ذلك بأسا .

هو - لي لذة أخرى في المعرفة هي الحديث عنها مع الناس .

هي - وهل تبيع من هذا ؟ هل يعطونك شيئا مقابل
حديثك عن معرفتك ؟

هو - أنا لست بتاجر . هذا ما لا أقبله مطلقا ؛ لأن
المعرفة لا تنقص .

هي - بالمكس كل شيء يزداد إلا المعرفة . هل زيد شيء
فيها عما عمله الانسان الاولي . ألا ترى أنك تأنف من سرقة
الناس ولكنك تسرق نفسك ؟

هو - ولو ... نفسي لي أنا .

هو - وما الشرف ؟

هي - الشرف هو أن تعمل أعمالا شريفة .

هو - وما هي الأعمال الشريفة ؟

هي - الأعمال التي تواطئ الناس على تسميتها بذلك ...
(بعد لحظة) أنت تعيش بماذا ؟

هو - بالقوت والماء مما يجري تحت الأرض وينبت
فوقها .

هي - وهل الأرض لك ؟

هو - الأرض ... لكل .

هي - لا . الأرض لأصحاب الأوراق

هو - ما دخل الأوراق في الأرض ؟

هي - الأوراق ... هي التي تخول حاملها ملكية الأرض .

هو - الأوراق لا تؤكل .

هي - لكنها تعيننا على أكل الطيبات .

هو - من أين تأتيم الأوراق ؟

هي - يسرقونها ... بعضهم من بعض .

هو - ولم يسرقونها ؟ لم لا يفتكونها علانية ؟

هي - يالك من وحش ! ألا تعلم أن المدني لا يقتصب ولا
يفتك ! من يرضى بذلك ؟

هو - الجائع .

هي - قل : العاجز ، قل ... لأن كلمة جائع حذفت من
قواميس المدنية .

هو - أنا عاجز لأني آنف من ارتباك السرقة ؟

هي - أنت أقل من عاجز . أنت وحش : ألا تعلم أن في
السرقة مجاملة ومجاهرة للسرورق ؟ وفي الاغتصاب قهرا

- هي - هل الأرض تدور حول الشمس أو العكس ؟
هو - لم تجدى إلا هذا ؟ حقيقة ان جهلك علمتى أشياء كثيرة .
- هي - ليس أقتبح من العلم الزائف .
هو - إننى أرى نجوما فى عينيك .
هي - ارعها إذن .
هو - ونجوما فى فمك .
هي - هي لك .
هو - انسى ما حفظته من والدك .
هي - أنت أمى وأبى الآن . وأنت انس النجوم .
هو - لولا النجوم ما وجدتاك .
هي - وأنا أغار منها ، أريدك لى .
هو - وهل أنا لغيرك ؟
هي - أصحيح ؟ (فى فرح) وماذا ستفعله من أجلى .
هو - سأترك الكلام .
هي - قبلنى .. زد ضمنى بين ذراعيك . آلنسى الما شديدا .
- هو - وكيف ؟ وأنا أحبك ؟
هي - لو كنت تحببى لفعلت .
هو - أنتجدين لذة فى تألىمى إياك ؟
هي - ألم تعدنى بترك الكلام ؟ إننى أكرهك وأكره كل ما هو لك . وأود تحطيمه تحطيماً حتى جسمى يعد ما وهبتك إياك ، أنا أكرهك وأكره فيك نفسى ؛ لأننى .. لأننى .. لأعبدك .. لأنى ...

- هي - هذا غلط آخر . نفسك لغيرك . لى أنا مثلاً ما دمت بجانبك .
هو - حسن . ها أنا أصبحت لها الآن !
هي - هذا بديهي إذ أنك لا تملك من نفسك شيئاً . أنت لا ترى نفسك حتى مجرد الرؤية . وأنا أراك فأنت لى وإذا رأيتنى فأنا لك .
- هو - لكننى أسمع نفسى .
هي - لا تكذب ، وأنت تدعى أنك لا تحب الكذب . أنت تسمع نفسك ؟
هو - (هازناً) حتى ولا صوت ضميرى ؟
هي - ضميرك يعيد ما سمعه ممن وضع فى نفسك هذا الضمير . هذا ما قاله لى أبى .
هو - وهل علمك أبوك أيضاً ؟
هي - علمتى .
هو - ماذا ؟
هي - الحساب مثلاً .
هو - لتحسبى به ماذا ؟
هي - كل شئ ... الأيام مثلاً .
هو - وما الفائدة من عد الأيام وأنت كلما سئلت حتى عن أيامك لا تقولين الحقيقة ؟
- هي - جميل منك هذا . هل أنت أصبحت تحسن الوزن بدون إبر . الحقيقة ؟ وهل ثمة حقيقة فى العالم ؟
هو - لا . الحقيقة هي الكذب الذى توطأ الناس عليه .
هي - إلا الرياضيات على ما يقال
هو - إذا لم تأت قواعد جديدة تغيرها .

أعلام همدى (*)

بالله واش زهاك قولى يا شمعنه

رانسى عانسقيك أعصى جبر

نظنن بيبك هبال وكفاح وطعمه

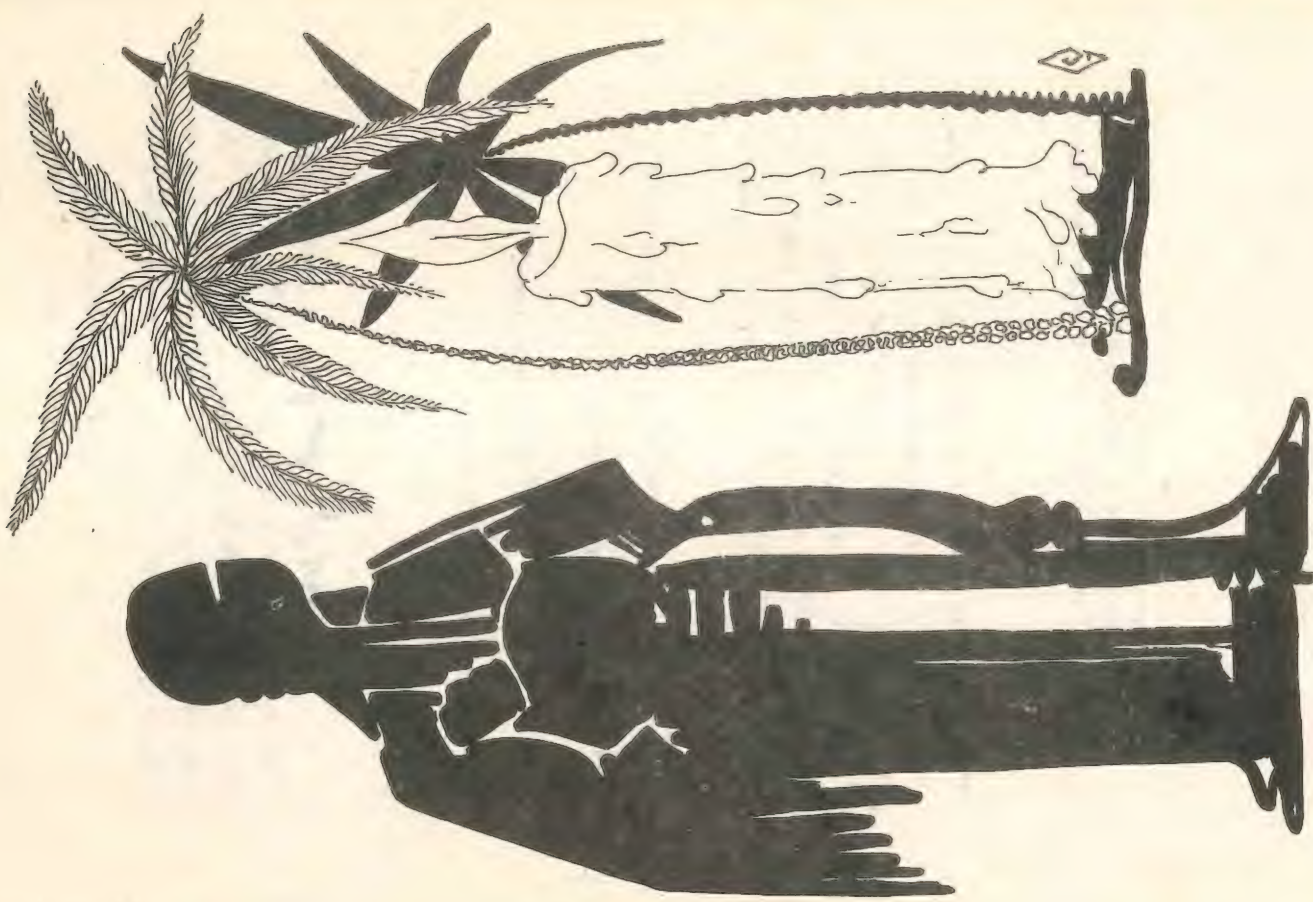
وزهيتى فى غير محلو عيب وعار

عرفت « حلمى » لأول مرة فى مدينة نقطة سنة 1937 .
وقدمنى إليها صديقى الأستاذ م . خريف (I) . وكنا كلنا فى
ضيائتها . . فرأيتها ترتدى ملابس الرجال وتتعم بالشاش
الصحراوى . وبالرغم من أننى لم أتمكن من تقدير عمرها
بالضبط ، فهى بلا شك قد تخطت العقد الرابع . وكانت
بيضاء اللون لطيفة الأطراف والحركات . وكانت لا تزال فيها

(*) حدى : شاعرة من أشهر شعراء الجنوب . رغبتا الى صديقنا صاحب الامضاء
أن يترجم لنا بعض أشعارها من لهجتها العامية الى العربية فبعت الينا
بترجمة أغنية الشجرة (ملاحظة المراجعة) .

(٢) المرحوم مصطفى خريف

هو - امرأة .
هى - اسكت . وقيلنى .
(ينزل الستار وهما متعاقبان فى قبلة طولية جعلتهما
يرتفعان - من عرائسهما - وهكذا عاشت البشرية بين تعاليم
الأم وفلسفة الأب ولا تعطى المرأة قبلتها للرجل إلا إذا وعدما
بملكه إياها فى عبوديته لها . ولا ترضى إلا إذا وعدما بأن لا
يقول لها شعرا) .



- رغم البياض الذي ذهب بلون عينيهما - جاذبية لا أدرى ما هي، وما سلمنا عليها حتى أخذت تحدثنا بصوت قد تصنعت له لهجة الرجال حتى أصبحت تحاكيهم بدون ما كلفة . وما كدنا ندخن « السبسي » الثالث حتى طلب منها الصديق خريف أن ننشدنا أغنية « الشعبة » فتبسمت كمن يتشم لحاطرة أو ذكرى ، وكأنها قد عادت الأغنية لذاكرتها بما حولها من أيام شبابها ورققاء سفرها حين كانت صبية كاعبا تشق الصحراء بين « تاله » و « القبار » و « وادي ريغ » و « نفطه » وكانت كما وصفها في إذاعة له الأستاذ خريف تجيد ركوب الخيل والمهاري ، وتحقق الصيد وهي تقول عن نفسها :

(راهي حدى عايقه) وأشعلت « سبسيا » بدورها . ثم أخذت تنشد أغنياتها - لا بصوت المترجلة الذي كانت تحدثنا به بل بصوت المرأة الذي كانت تنشد به أغانيها قبل أن ترتدى ملابس الرجال . وهي لم تترجل في زيتها تطاهرا أو شغفا بالرجولة ، وهي الأنثى المعتزة بأنوثتها . بل فعلت ذلك ليتتمكن من حياة حرة لا يمكن أن تحيها وهي في بخنوث وحلية .

.... وكان منها إنشاد ومنا إنصات . زحضرتنا أحلام حدى بلسانها تحدثنا عنها فتقول في رقة وترتيل :

- الأغنية -

« كنا نسير في الصحراء الواسعة وقد قرب الغروب وأعياننا السير وأتعب جمالنا وذهب حرارة ريح القبلى بما في أجسامنا من ماء ورطوبة ، فأنخنا رواحنا . وذهب كل منا يؤدى واجبه نحو رفاقه يهيم ما عليه أن يهيئه ، فهذا يجمع المشيش اليابس ، وآخر قد اتجه نحو البئر . وكنت أنا أهيم العجين والفلفل للعشاء . وما فينا إلا فرح بهذه الراحة بعد أن أجهدنا أنفسنا في السير في الرمال الى حد الملال . وكان يظاننا عن

الريح الحارة عرق من رمل مرتفع . ولم نلبث أن اشتد علينا الظلام ولم يبق من النور إلا بصيص النار تحت القدر . وبالرغم من ثقل الليل ، فقد كنت فرحة به لأنه انتقم لنا من عدوتنا الشمس وغربها كالطرودة .

« أنا أحب الصحراء كما أحب أمي ولكني أسأها أحيانا . وأنى إنسان لا يمكنه أن يسأم كل هذه الرمال السخينة التي تدخل في كل ما فيك حتى تسد عنك النفس وتخالط حتى طعامك وشرباك . وكنت كنت أود ساعشذ لو كانت هذه الرمال على شاطئ » رادس « شفة للبحر والماء .

« وبعد العشاء أخذنا في طهي التاي لفصل حلوقنا من الرمال المائلة بها . وشرعنا في تدخين التكرورى والعرجار ثم إذا أحد رفقاءنا قام الى رحله فأخرج منه شمعة وود أن نشرب التاي على نورها . وكان القمر لا يطلع تلك الليلة إلا قرب منتصف الليل .

« وما كان أحقر نور تلك الشمعة الصغيرة واقفة كأصبع الجنى في هذا الوادى الواسع !

« على أن نور الشموع كان أحب الأنوار إلى لأن في رقصه بين النور والظلمة رقص الإنسان بين الحياة والموت . ومع ذلك فقد طالبت باطفاء الشمعة في تلك الليلة لا كرها لها بل ضنا بنورها على هذه الصحراء المفضة الى نفسي لكل ما عانيت من السير فيها عامة يومى . وسألتى رفيقى : ما يفيض اليك نورها فتحرميننا منها ؟ قلت : إنها في غير محلها إذ لا يليق بهذه الرمال إلا الظلام ورائحة العرعار . قال : وأين تودين أن تربها ؟ قلت : بل قل أى مكان يليق بها . فأعاد على رفيقى السؤا الى كما قلت نالهمنى دوى الجواب فقلت : فى قصر مرتفع كالصخور التي يشيدها الصعداء على شواطئ البحر

- والصحراوي يحب الشاطئ حب البحرى للصحراء الدافئة - جدرانها من رخام ملون ، وأبوابه مصفحة بصفائح النحاس اللامع وفى أحسن غرفة بالقصر بأعلى طابق منه فى سرير من خشب مزخرف بصور الطيور والأزهار منصوب بجانب النافذة المطلة على البحر الصاخب شاب أسمر اللون أسود العينين مرتد ثياب النوم يدخن سيقارة، وهو يستمع الى هدير الأمواج ووقع خطى محبوبته وهي قادمة نحو الغرفة وهو يترقبها بكل ما فى ترقب المييب من مراة وحلاوة . ويقول : ألا تاتين ؟ فتجيب فى دلال من تعلم انه كلما طال ثرقبها زادت الرغبة فيها : اصبر قليلا فالطبيب ينتظر وهنا تأتى الفتاة وفى يدها شمعدان فضى فتضع فيه شمعتنا هذه وتشعلها لتنزع على نورها ملابس النهار وترتدى لبسة النوم وهي تحاول ان تخفى عن عيني زوجها بعض اعضائها حتى يراها فى شوقه اليها أجمل مما لو كانت عارية . وكلما طلب منها ان تسرع تذكرت تلك الشقراء الجميلة شيئا وقامت نحوه تنثنى حتى تريه أن جسمها جميل فى حركاته كما هو شهى لذيد عند امتلاكه .

وهكذا بين الذهب والاياب والتثنى تصل الأنتى الى ما تنطلبه الا وهو حدة الرجل وشدة توقه . فيصرخ بها على توقيع أمواج البحر : سأنزل من سريرى وأعلمك كيف يجي أن تلبى ندائى . فتتسم له راضية وتلتحق به مطمئنة . وما تكاد تسكت صراخه بقبله حتى يتنفس البحر بنسيم (الشرقي) فتتلفى الشمعة وتموت عند موضع أقدامها ولا يبقى الا البحر والحب ...)

هذه قصة الشمعة التي أنشدناها (حدى) فى تلك الليلة . وهى ككل أشعار (حدى) فى لغتها وقالها الأصلى أجمل بكثير منها مترجمة . إذ أن فى الأشعار نفسا دقيقا من روح الشاعر لا يمكن أن يترجم الى لغة غيرها .

- اسكت دفعت كمباله التارزى ، واشتريت
بالبقية كبشا .

* * *

كان الرجل عجوزا صغيرا أعنى أنه تجاوز الحسين ،
ايض شعره . وما زال يحتفظ بقليل من نشاطه . وكان
جالسا بجانبنا ، ويستمع الى حديثنا ، وعلى فمه ابتسامة ،
تفرقت على شفثيه الكاليتين ، كما تفرق الدمة فى العين
المهومة . ثم استعالت الابتسامة الى زفرة . أعقبها نائحا :

- الكيش !!!

التفت صاحب البرنس الرمادى الى العجوز . وسأله مازحا .

فى لهجة الجاد :

- الكيش !!! أتدرى ماذا أعنى به ؟ هو تلك البهيمة التى
تحمل قرنين ، وتجر خلفها شيئا كحجر السراويل ، تلك التى
نضحى بها فى هذا العيد المقبل .

- ويلعب بها صبياننا . أه . . . الكيش .

* * *

كنت أظن أنه يأسف أن لم يبق طفلا ليلهو بالخرقان كما كان
يفعل ، وهو صبي . وكان صاحب البرنس وجد ما يسلمو به
عن التفكير فى أجر طبع الجريدة . وكان العجوز يبكى ويبكى
بكاء المسكين الذى لا يملك شيئا . حتى أنه كان يبكى بأعين
ناشفة . ولكنه كان يبكى بكل وجهه ، وليسديه المرتعشتين .
وسأله صاحب البرنس الرمادى فى فضول الصغافى :

- عم تأسف ، يا عماء ؟

- كنت أود أن أكون أنا خروفا . أنا نفسى

- وما يملك من ذلك ؟ لعلك فقدت زوجتك !

أجاب ، وهو يتعافى عن تكبته صديقى الذى لا يحتسوم

المركن الغير

- 1 -

كان صاحب البرنس الرمادى جالسا أمام منضدة عليها
كأس القهوة وأقلام وأوراق . وكان صاحب البرنس الرمادى
يدير جريدة أسبوعية انتقادية فكاهية . وكنت ممن كانوا
يشاركونه فى تحريرها . وكنا نحررها ونصورها على مشرب
هذه القهوة . فما رأيته حتى أقبلت نحوه . وكنت أبحت عنه
لأمر يخص طبع الجريدة . جلست قبالة . وسألنى :

- هل صفت الصفحة الثالثة . هل صفت « أم القائل » ؟
وكان يعنى بـ « أم القائل » المقالة الأسبوعية التى كنا
نخصصها لنقد أهل الفن وبالأخص المطبوعة مفيدة . وكان
يتشدد فى نقدها . ويقسو حتى يجره النقد أحيانا للشتم
المز .

قلت :

- صاحب الطبيعة يقسم بطلاقة أنه لا يضع حرفا على رعايته
ما لم يستلم أجر الطبع سلفا . أين الحورالة التى استلمتها
البارحة ؟

قال :

التفت صديقي نحو المعجوز ، وقال فى لهجته الجادة دائما :

- ابشر ٠٠٠ هل لك حيل ؟

- لسنقى ؟

- لا ٠٠٠ لجر الحروف .

- وأين الحروف ؟ لو وجدته لحملته على عنقنى . أين الحروف ؟

قالها فى لهجة بين اليأس والعتاب عن هذا المزاج المؤلم ، فى مثل هذا الموقف .

- سأعطيك ورقة .

- : ذات ٠٠٠ كم ؟

- لا ٠٠٠ ورقة زيارة تقدمها لمن سأخط عنوانها (أريد صرفك الى غادة ٠٠٠) على ظهرها (الورقة طيما) وأنا واثق مائة فى المائة (وهو لا يشق دائما الا بمثل هذا العدد الكامل) أنك سوف لا ترجع خائبا .

وقملا ، أخذ قلما ، وخط على بطاقته عنوانا . عنوان من ؟ عنوان مفيدة . عدوته اللودة مائة فى المائة على حسب تقديره هو ، والذى يخصص عمودا لشتها اسبوعيا . تلك التى اشتهرت بقلبها الرخامى وبقساوة لا تضاهيها فيها امرأة ؟ ! مفيدة القينة !!!

قلت مر قابا :

- أظن ٠٠٠ سوف تسخر من بطاقتك ومن المعجوز ؟ سخريتها بكل شئ .

قال :

- ألم اقل اننى واثق ٠٠٠ فى ضمن كل ما أعلمه عنهما . أعلم أنها امرأة .

شيننا فى سبيل تنكيته :

- نعم فقدتها . ولكنها - رحمتها الله - تركت لى طفلين وبنينا . راضية الصغيرة . لها خمس سنوات .

هنا اسكت صديقى . وأفهمته برخصة من رجلى : أن الرجل جاد فى شكواه ، وأنه مهوم البال ، وبرخصة أخرى ، أفهمته : أن فى هم المعجوز راحة الخرفان فليستدرجه الى الحديث ٠٠٠٠

وكان المعجوز انتبه الى ما كان يدور بين سابقينا من رفسات انتهائية واستفهامية ، فتدفق علينا تدفق « مجردة » فى موسم فيضانه :

- نسكن فى غرفة فى بيت لنا فيه أربعة اجوار . ولكل من أجوارى أطفال فى مثل سن صغارى ، اشتروا خرفانا تلهو بها صبيتهم إلا أنا ٠٠٠ عفوا انى أقص عليكما ما لا يهكمبا . وإنما لتعلمنا اننى كنت أحب الناس للمزاج بدرجاته من تحت الصفر الى 40 فى الظل . ولكنى نسيت المزاج وأنسانيه شقائى . عندما أرجع الى بيتى . وأجد أكبادى كل منهم قد انتهى ركننا ، كفييا ، واجما لا يبكى حتى ولا يطالبنى بالحروف كأن الصغار فهموا من سنتين أن لا فائدة من مضايقتى بطلب ما لا أستطيعه . حقا انى لأتسح حالا من خرفان الضحايا .

إنسانا . حديث المعجوز أمر طبع الجريدة .

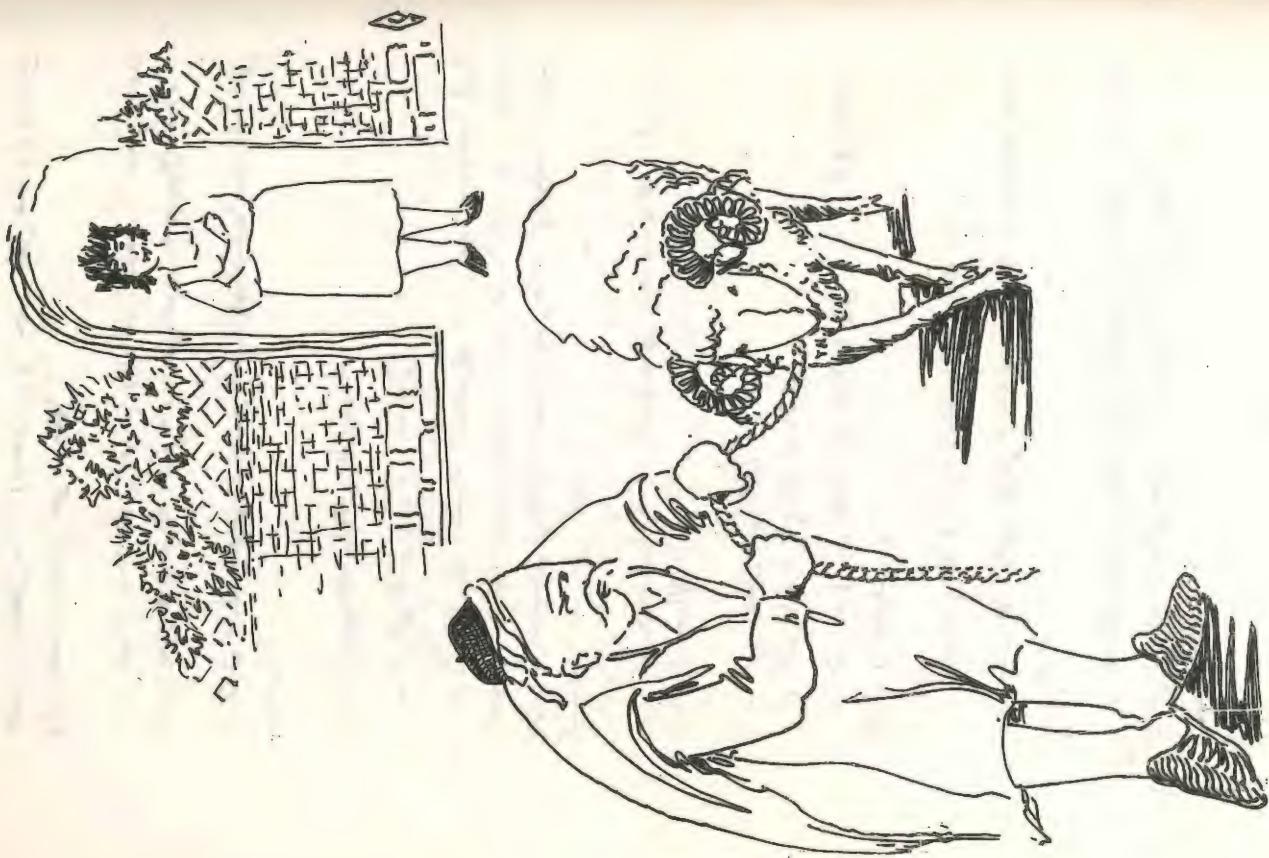
بقيت أنا غارقا فى ذكريات الطفولة عندما كنت السح فى طلب خروف العيد من أمى المسكينة . ليسامحنا الله (أنا والخرفان) ؛ فلقد كنا نكلفها كثيرا . أما صاحب البسرنس الرمادى ، وكان عمليا أكثر منى ، فانه أخذ يحول بنظراته حولنا كأنه يفتش عن خروف صانع ، خروف يجيد القفز والنطح ليقدمه لصبيته هذا المسكين يلهون به ويكسونه يوم العيد قبل آكله .

قلت :

- انى واثق مائة فى المائة كالمادة لكن ... هي ...
وأنا أنظر وجه العجوز المبسم ابتسامة الشاك فى حديث
صاحبي ، والشاك فى العنوان المكتوب على البطاقة .
ولكنه بعد أن قلبها مرات ، قام بعد أن قال لصديقي ما يقال
عادة للشكر . وقام متجها نحو مسكن القينة يقدم رجلا
ويؤخر أخرى . وكنت لا أعلمه عنها ، وعن أخلاقها فى مثل
شكه .
حكى العجوز . قال :

- كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعي على الزر
المنبه ، وفتح الباب الحديدى حارس مشربى . فقدمت له
البطاقة . غاب قليلا ، ورجع تصعبه صاحبة البيت . كانت
مشوشة الشعر ، مورمة العينين من تأثير النوم . وكأنها
صحت على حس الزر الكهربائى . كانت ترتدى فستانا حريريا
عليه رسوم أطياف وأزهار لم أر مثله . سألتنى عما أريد .
فأجبته بالكلمة الواحدة التى تملأ قلبى وفمى « .. أريد
خروفا .. » ظهرت عليها علامة الدهشة . وكأنها استغربت
أن يطلب خروف من قينة . وبين التخت والمسلخ ما بينهما من
بعد . ولكنها طلبت منى أن أتبعها . تبتعها الى صالون فخيم
مشوش وضع الاثاث كشعرها ، ثمين الرياش كفستانها .
جلست على مقعد وانكأت هى على حرف طاولة ، وأخذت تسألنى
قصتى . وقصصت عليها خبرى ، وخبر الصبية ، وخبر كما .
وكانت تنظر الى الأرض ؛ فما رفعت رأسها حتى تبيئت من
خلال دموعى ، أنها تبكى بكاء حادًا مثل ، وقالت :

- آه . ليت من يطالبنى بملاعبة خروف ... هيا ننزل
الى الحديقة .
نزلنا الى حوش خلف الكرمة به أشجار وفيه خراف قائمة ،
وأخرى رابضة فى جملتها نا ينوف على العشرة حول أعشاب



لا أنسى فرح مفيدة ، وهي ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها الصغيرتين .

ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهي تحتضنه تارة ، وتقبله أخرى .

ولا أنسى فرح الصبية اخوتها بالحروف ، وهم يزينون قريته بكل الرقائق من كل الألوان .

ولا أنسى فضلكم وفضلك أنت بالأخص ، يا بنى ؛ لأن الدال على الخير كفعله .

أجاب صاحبي ، وقد خلع برنسه الرمادي :

- لا تشكروني على شيء . إنما الشكر لله الذي أبقي في قلب القينة ناحية بيضاء ناصعة ينيرها نور الحنان . وهو أبهى الأنوار وأكثرها تلالؤا .

خضر ، وسطل ماء . ودخلت بينها تجس ظهر هذا وتربت على رأس هذا ، وتدفع آخر برجلها .

- هو ذا . . . الذي يصلح لأطفالك الصغار . سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة المتوية ، وسيباهون به صبيان الحارة .

تقول هذا ، وهي تسمح بمنديلها دمعا تساقط على خديها :

- أليس هذا رأيك ، يا أبت ؟

- الرأي ما ترتأين ، يا سيدتي .

- ألم تقل إن ابتك الصغرى . . . كيف سميتها لي ؟ راضية . . . لها خمس سنوات . نعم هو ما قلته لي . لتأخذ إذن هذا العليش لراضية . سوف يسرها . ألا تجد أنه وديع كبنيتك ؟ هل هي كحلاء ؟

- نعم وجيلة كسيدتي ولو كانت لا يمكن ان تضاهيك جمالا .

- هي أحسن مني الآن .
ثم كان خاطرة فاجأتها فسألته :

- اتسمح لي بعراققتك الى بيتك ؟ إنني أريد أن أرى راضية تقبل (العليش) ؟

- البيت بيتك والبنية ابتك إن شرفت

لم تغب إلا دقائق فلائيل . وعادت ملتحة . واقبلت نحوى سرعة :

- لقد أرسلت في طلب عربية لنقلنا الى راضية . هي ذي تذاكر المسلخ . هات جيلا ، يا سيدي . . . يا سيدي !

كانت عادتنا أن نحتفل بأسبوع المولد على صاحبه. أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وكنا ننشد القصائد المولدية طيلة الأسبوع السابق ليوم المولد . وفي اليوم السابع منه - ليلة المولد - يأتي (مفرق) الأوقاف ليوزع على جميع صبيان الكتاتيب نصف ريال لكل صبي ، حبسا موقفا على أذكاء المولد في الكتاتيب . وكنا ننشد يومئذ أناشيد ، وأساعنا مرفهة تنويع وقح خطي « المفرق » فما سمعنا خطي إلا ارتفعت أصواتنا في سلمها الموسيقى بقدر ارتفاع خطي « المفرق » على سلم الكتاب . وكان الظن السائد بيننا أن « المفرق » لا ينقدنا انصاف رياتنا إلا إذا سمع دوكاتنا وعراقاتنا وحجاراتنا من نصف طريقه اليينا . ولم تكن نعلم بالضبط ما كان يأخذه المؤدب من الحبس . إلا أننا كنا نراه يتسلم شيئا من « المفرق » على البركة ، ولا يعده إلا بعد قراءة القاتعة ، وخروج « المفرق » ؛ ففينا من يقول بأن المبلغ مائة ريال فضة ؛ وفينا من يسراها ريات معدودة . إلا أن الغالب على ظننا أن المبلغ ضئيل لأننا كنا نرى المؤدب / على ما عرف به من الورع / لا يتركنا نخرج بأصناف رياتنا كاملة ؛ فالعادة التي سننها بيننا هي أنه كان يجري علينا في ذلك اليوم امتحانا شديدا ، وشديدا جدا . ننظرا لأننا كنا تركنا كل مراجعة طيلة سبعة أيام . ومن يجدهم يتلنا في سرد الآيات المطلوبة أغرمه غرما ماليا يتسراوح بين تلح الريال وسدسه . ولكنه لا يتشدد في تقدير الغرم إلا على الأطفال الأثرياء . وكان أبائنا لا يرون في ذلك إلا دليلا على شدة اعتناء المؤدب بتعليمنا ، أما نحن

وكان بيننا طفل يسمى إبراهيم . وكان ذكيا ، فقيرا يحفظ كل ما يكتبه في لوحه . ولكنه إذا جلس أمام سيدي

أصح تذكر جيران بذي سلم ...

كانت أما ، ولكنها بقيت امرأة .
توفى زوجها وترك لها طفلين في حضنها ، ودموعا في عينها . فيكنه طويلا ، وبشت بطفليها الى كتاب الحى .

وكان المؤدب رجلا طيبا ، ولكنه قاس شديد ، وكان تقيا ، ولكنه بخيل . وكان يعلم عن هذه الأرملة ما يعلمه كل الجيران : أرملة في الخامسة والعشرين ، جميلة ، زاهية ، ولكنها غفيلة . وكان للمؤدب طفل ماتت أمه ساعة وضعه ، فخطب الأرملة وتزوجها . فأصبح لسيدي المؤدب زوجة وللأرملة ثلاثة أولاد . وما تزوجت الأرملة بالمؤدب حتى أصبحت الزاهية الضاحكة العابثة ، في مثل ورع المؤدب ، ومثل ثقاه : تؤدي الصلاة في أوقاتها ولا تكلم طارفا إلا من خلف الباب . ولم يكن للمؤدب هذا إلا عيب واحد - أو على الأصح ضعف واحد - هو حبه لجميع المال جمعا لا . والمال قوام الأعمال ، ولا يقام عنده الدين إلا بالدنيا .



المؤدب أصابته الضلالة . ولعل خوفه من ربح المصا على أطرافه الصغيرة هو الذى يتركه يقافى ، ولا تخرج حنجرته حرفا واضحا . وكان المؤدب يعلم منه هذا . فكان يكلف عادة باستعراضه محفوظات معينة ، وهو تلميذ فى القسم الثالث ، لكن فى يوم التفريق سأل المؤدب نفسه أن اقرا ، فلم يقرأ إبراهيم . وكان عقابه / حسب التعريفة / ثلث ريال . ولم يبق فى يد المسكين سوى (جواز صودى) لا تسمن ولا تفسل عصيدا .

ورجع إبراهيم الى والده المسكين باكيا . ورجع أحمد ابن امرأة المؤدب الى أمه . وقص عليها ما جرى لإبراهيم المسكين فى حفلة التفريق . وكانت تعلم أن والد إبراهيم فى أشد الحاجة ، وأنه بدون نصف ريال الفرق لا يحضر عصيدة صباح الغد .

- 4 -

بعد أن سلمت من صلاة العصر خلف زوجها ، وخرج هو الى مقهى الحى دخلت الى فراشها ، وأخذت - وهى التى لم تسرق قط - تنص بيدها تحت الوسادة حيث يضع المؤدب كيسه . وفكرت فيما يجب اختلاسه من هذا الكيس لاغائة إبراهيم ووالده . وأخيرا ، أخذت خمس ريالات - ثلاثة فراكات فضية - وأرسلت ابنها أحمد فى طلب إبراهيم . وما حضر واختلت به حتى خرج الطفل يجرى نحو بيته باشا .

- 5 -

كانت المادة أن نفطر صباح المولد جميعا فى الكتاب من الصواني التى يرسلها اليها أثرياء الحى من آباء تلاميذ وغيرهم من أهل البر والسعة ، فتشوى الشقاتل ، والقيروانيات كالبراكين الهائجة سائلة سمناء وعسلا وقشقة ورغيدا من

مجرد رغم انه

- 1 -

كانت الساعة الخامسة صباحا . وكان جو المحطة غائما بسحب كثيفة من دخان القاطرات ، تنيره مصابيح قشيلية . وكان قاسم أمام درجات إحدى الحافلات ينظر الى ساعة المحطة . فتخاطب نفسه قائلا :

« ما تزال ساعة كاملة لموعده قيام القطار . ما أطول الساعات الأخيرة ! »

جلس قاسم على مقعد في مؤخر الحافلة . ووضع قفقه بين ركبتيه . وأخذ في لف سيفارة بيدين ترتعشان . وأنست عيناه بظلام الحافلة . وأبصر قبالة شيخا بدينا جالسا ملتفا في برنس أبيض نقي ، يعتن بعمه . وكان الشيخ كتمثال الشمع لا يبدو حراكا . ولا يابه لحركات المسافرين . فابتدأ قاسم بالتحية :

- صباح الخير يا أباي الشيخ .

ولم يرد الشيخ التحية لا بأحسن منها ، ولا بنقلها . وأسر قاسم في نفسه : « هذا عجوز قليل أدب . لكنني مجبور على

فنسحق ولبن ، وكان منا من يدخل وخادم يتبعه بصيغته ، ومنا يأتي بطبقته بنفسه .

وأقبل ابراهيم ذلك اليوم بطبق لم نر قط مثله بين الإطباق .

- 6 -

..... وماتت امرأة المؤدب لعامين بعد زواجها ، وبكاها المؤدب وبكىها نحن الصبية .

- 7 -

ولو أنك ذهبت يوم المولد الى مقبرة « الفدان » لوجدت رجلا يرتدي ملابس أنيقة ، ويحل صدره بسلسلة ذهب ، جالسا في خشوع عند قبر حجري ، وفي يده « بردة الديح » ينشد لها بنفس النغمة التي كنا نشدها بها ونحن صبية وبين الآونة والأخرى تنحدر دمعته من عينيه

القبر قبر « سارقة الريالات الخمسة » وحملها الله وغفر لها . والرجل الذي لا يزال يبكيها منذ ثلاثين مولدا هو ابراهيم .

مرافقته ما دامت الحافلة خالية الا منا الاثنين ، .

أشعل قاسم عود وقيد لإيقاد سيفارته . ورأى على بصيص نورها وجه الشيخ . وكان وجهها وديعا حقا يوحى الثقة بصاحبه ، وقورا بذقنه الأبيض ، وعينيه الالامعتين . ورأى الشيخ بدوره قاسما وابتمس له .

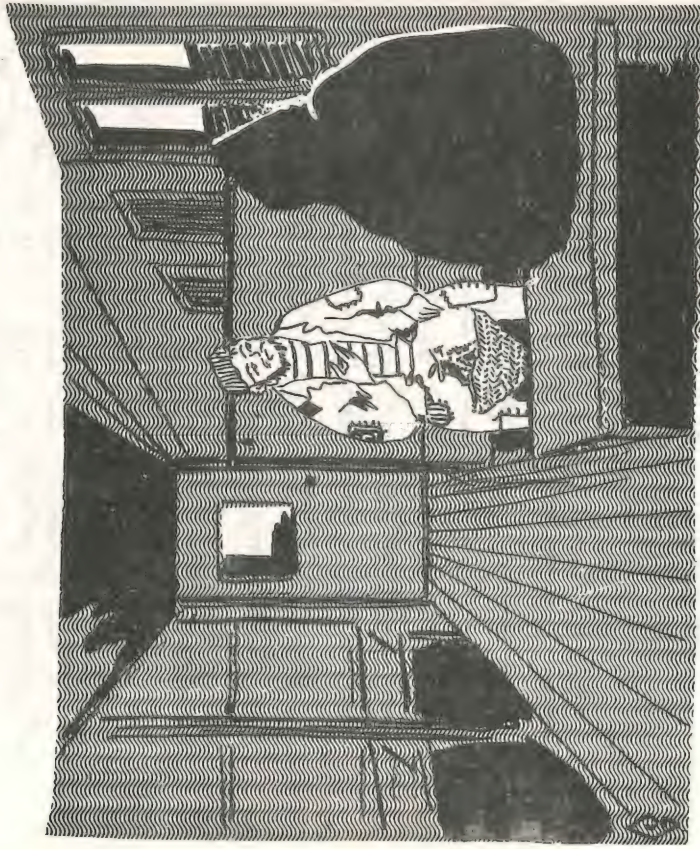
كان قاسم في الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، قمحي اللون ، جذاب الملامح ، رغم كآبة تعلو وجهه ، وذقن لم يخلق من أيام ، يرتدى بدلة زرقاء قديمة مزرقاة الأطراف ؛ عليها من الرقع ما على الخرائط الجغرافية من ألوان .

شجعت ابتسامة الشيخ قاسما لاعادة فتح الحديث مع رفيقه الصغور ، لا تقتل الوقت والطريق ، بل لأنه كان في حاجة الى بيت شكوى كتبها مدة طويلة . وأخذ في إلقاء حديثه دفعه واحدة ، وبلا مقدمة كما يطرح الحمال حمولته ثم ينفض كتفيه من غبارها . قال قاسم :

- أوه يا أبى الكبير ! . . . لا يدري الحياة من لم يبتل الحياة ! . . . ما أقساها . . . وما أمر طعنها ! لقد حملت من أعبائها ما تنوء بحمله الجبال الرواسي . لقد ظلمت ، وميتت بطل ، روعت منها طول حياتي حتى تتركني أنفاس قلبي ، وضيمري ، كما يفعل الثعلب عندما ينهش رجله بنابه ليتحركها للفرح وينجو بالباقي . لقد زلت بي قدمي الى هوة الاجرام وأنا برى

وكان قاسم يتكلم بصوت متهج في لهجة من تعود أن لا يتكلم جهرا . وكانت سيفارته ترتعش بين شفثيه . واستأنف حديثه :

- لا تنكر على قولي إني مجرم وبرى . أنا هذا المزيج



تراه كان تلميذا نبيا في مدرسة ثانوية . وكانت هي أيضا تتبع دروس التطريز والتزويق في « ليسى » للبنات . وكنت أصحبها في ذهابها وإيابها من المدرسة .

« وكان في طريقنا الى مدرستينا دكان عطار لا تمر الفتاة أمامه الا غازلها ببذء المغازلة التي اخص بها الرعايا والسوقة . وكنت أكظم غيظي ، وغيرتي . وأمر أمام دكانه مرور الأصم . وهذا ما شجع العطار الوقف على التمدادى . وهذا ما جلا كآسني حتى فاضت . »

« فاضت ذات يوم ، ولم أتمالك نفسي من الدخول الى دكانه ، ولم أشعر إلا والسكين الذي يستعمله في تجارته في يدي اليمنى . وصرخ المطار ، وفتح دولابا ليخرج سلاحا ، وسبق السكين ، فدخل قليلا في ذراعه . وصرخ العطار ، وفزعت غوغاء الشارع ، والتفوا حولنا . وكنت في مثل نوبة المحوم ، لم انتبه منها إلا أمام القضاء . واللعين يدعى أني أصررت على قتله لسرقه ما في صندوقه من مال ، وهو ثرى وأنا فقير . »

« وشهد المون الذي ساقنا أنه رأى السكين يلمع في يدي ، ونية القتل تلمع في عيني . ورأى الدولاب مفتوحا ، وجرحا في ذراع المطار مفتوحا . »

« أما أنا ، يا أبتاه ، فلقد كنت كالمصروع أفافى ، ولا أقول شيئا . ولم تحل عقدة لساني ، إلا وأنا في سجن ضيق . بكيت ، انتحيت ، وصرخت الى رفقاء السجن : إني برىء ! وهزأوا مني . . . »

« كانت كل القرائن ضدى وحكم على بالسجن خمس سنوات مع الشغل الشاق . وعملت في « صواف » ! أنا . أنا الذى لم أترك المدرسة إلا للسجن . . . فهل الذنب ذنبى إن كنت خلقت لأحب تلك الفتاة ؟ وهل الذنب ذنبى إن كانت

الغريب . لقد قسمت على الأقدار استغفر الله ، فلقد لاقيت كل شيء ضدى مذ حملت بى أمي . مات والدى قبل أن أرى الحياة ، وماتت أمي ، وأنا صبي . وكفلني أخ أحق بخيل . فكر ، وأنا في السادسة ، أن يقصيني من تاله ، مسقط رأسي ليستأثر بالارث دوني ، فأرسلني الى العاصمة عند ابن خالة لنا يدعوى طلب العلم كأنه لا يوجد بنالة مدرسة لتعليم صبي في السادسة من عمره ومن هنا بدأت سلسلة مصائبى .

« كان عمر الوددى ابن خالتي رجلا طيبا ثريا لا أذكره إلا بخير . قبلني بين أولاده كواحد منهم ، وسهر على تعليمي وتربيتي كالأب الرحيم . آه يا أبتى ! . . ما أشقانى . لقد كنت أحس رغم حنان قريبى بنوع من الحنان ينقصنى ويترك فراغا في قلبي وجدته . »

« أراك تصغى الى حديثي ، ولكنك في قرار نفسك تهرأ من فتى يشكو الحياة ، ولم ير منها إلا سنين معدودة . ولكني تأملت ، وعانيت في هذه السنين القليلة الشيء الكثير . إني أصرخ الآن أمامك ، وأمام العالم ، والعدالة ، والقضاء بأنى مظلوم ، ولم أفعل ما يوجب تحمل ما تحلته . لقد كنت سجيناً أجر قيد الحديد ولم أطلق إلا أمس . . . أتدرى ، يا أبى ، لماذا سجننت ؟ لأنى دافعت عن شرف فتاة أحبها . أراك لا تحير جوابا ، ولا تبدى حراكا . معك الحق : فاني ابتدأت حديثي بخواتمه ، وسأقص عليك الآن أولا فأولا :

= 2 =

« كنت في بيت عمر قريبى مكرما ، مدلا ، كأنى بين أبوى وإخوتى . وكانت بين بنات عمر فتاة في مثل سننى جميلة ، ذكية ، علقت بها ، وعلقت بى ، ونحن صبية وأنسننى بعطفها ، وحنانها ذل اليتيم . وملاّت فراغ قلبي . تجاوزنا السنين . الطوال حبا نقياً ، طاهرا من كل الادران حتى أصبحنا لا نفترق إلا في ساعات الدراسة . نعم ، يا أبى ، إن هذا الشقى الذى

قلت غايه !...

- 1 -

جلس رجب على صندوق أمام المخزن ، وهو ينظر الى فرسه « الأزرق » ويقول له :

- كل علفك ، يا صديقي ، إذ لم يبق لي صديق غيرك أنت أحب الي منها .

أحب اليه منها ! لا . لقد كذب رجب . فعالية أحب اليه من نفسه ولا يعيش إلا لها وبها ويحبها . ولولا الحب الذي ملك كل حسه وملا كل قلبه لما ترك حقله في طبرية ، وترك العباب القروسية والغناء في الأعراس . لقد كان رجب أشهر فرسان الشمال التونسي . ومن أجل حب غالية استقر رجب بالعاصمة ، واستبدل سرج (الأزرق) بعربة نقل .

- نعم أنت أحب الي منها ، تلك التي من أجلها تركنا حلبة السباق ، ونزلنا الى جر العربة الثقيلة التي لم نخلق لها ، يا أزرق . أليس من أجلها رضيت بتحمل قرعة العجلات خلفك يا أزرق ؟

وكان (الأزرق) يمز رأسه بين الآونة والأخرى ، ويحرك فكيه كأنه يصادق على حديث مولاه ، وكأنه يأسف على الأيام

دمائي لا تحتمل سماع مازلات العطار ؟ وعمل الذنب ذنبى إن كان سكينه حادا يدخل في لحم البشير كما يدخل في الصابون والإجبان ، وينفس السهولة ؟

« تركت السجن بعد مضي الحس سنوات قضيتها بين المجرمين وسمعت من أقاصيصهم ما سمعت . فهل الذنب ذنبى إن كانت أبواب السجن لا تغلق إلا على المجرمين ؟

« لم أجد الى بيت قريبي ، وأنا أعلم أنه لا يقبل متهميا بالقتل والسرقة كما كان يقبل التلميذ الذي كنته قبلا . وعلمت بأن الفتاة قد زوجت للعطار ... الوقع ... الثرى الذي لم يدخل السجن مثلي ، وكان هذا جزائي منها ...

« لم يبق كثير بيني وبين الهوة التي تفصل بين عالمي الفضيلة والأجرام . أدمنت شرب الحمرة وقد قيل لي : إنها تعين على النسيان . فهل الذنب ذنبى إن كانت الحمرة لا تعين إلا على الكسل ؟ وعدت الى السجن والعمل في حقول « جثار » وملاحة « حلق الوادى » ، وعدت الى تأثيرات أوساط الاجرام » .

هنا ... في سماء المحطة زفير بخار القاطرة مؤذنا بقرب تحركها ... وبددت أشعة الشمس الذهبية زرقة الفجر القاتمة . ولم يتحرك الشيخ من حديث الصعلوك ولا من زفير القاطرة الذي يصم الآذان .

واتسعت حدقتنا الصعلوك ، ودخله شك في أمر مستمه . ووقف الصعلوك . ومسك كتف الشيخ متساؤلا :

- « يا أبى !... يا أبى !... أسمعتم قصتي ؟ »

أجاب المجوز :

- « أبو ؟... أبه ... عيا ... أبو ... »

وارتمى قاسم على مقدمه مغمض الأجفان ، وهو يقول :

- « آه حتى هذا ! لقد كنت أشكو بلوى الى أسم أبكم ! »

وتحركت دواليب القطار .

التي خلت والتي لم يكن يحمل فيها إلا السرج المطرز والنجام
الفضي . ثم يعود الى علقه ممثلا .
ويعود رجب الى محادثة فرسه :

- أين تلك التي كانت تخضب (سبيك) بالحناء يا أزرق ؟
لقد مرت أيام لم أرها فيها ، تلك التي لم تكن تصبر على فراقى
يوما واحدا . أما زلت تذكرها ، يا أزرق ، تلك التي كانت
تطعمك السكر اللطيفة ؟ أتذكر مولاتك غالية التي
هجرتنا ؟

وكان الفرس يشاطر مولاه لوعته فيسهل صهيل الألم بنفس
قصير ، ثم يعود الى المنود .

ويعود رجب الى التفكير في حب غالية ، وفي صد غالية ،
ويحس بمثل وخز الاثر في قلبه ، ويقول مخاطبا نفسه
وفرسه :

- لعلمها علقت بغيرنا ، يا أزرق ؟ من هو ؟ آه الويل لمن
يتحدى رجب ويزاحمه في حب غالية !

- 2 -

أما غالية ابنة عم رجب وخطيبته ، فهي جميلة ، جذابة ،
مرهوة ، مرحة ، مشغوفة بخطيبها الفارس الجميل شغفه بها .
ولم يبق لإقامة حفلة العرس إلا ختم (عام الحزن) على وفاة
والد رجب .

وكان رجب لا يقيم في البيت مع عائلته إلا أنه يذهب كل
يوم لرؤيتها ومرارا .

حدث أن غضب مع عائلته ، فلم يذهب الى البيت منذ ستة
أيام ، هي كست سنين عنده . وكان يتوقع في كل ساعة طيلة
هذه الأيام أن تأتي غالية لرؤيته ، أو تبعت أختها الصغرى
لتنسم أخباره . ولم تقفل ، ولم تسع لازالة الحلاف ليعود الى
البيت ويعود لها . فهل سلته ، ولم تعد تخفل بحضوره أو
غيابه ، أم علقت بغيره كما أوجت له الفيرة ؟



الغريم ، وهو يلتفت آخر أنفاسه .

ورأى . . . ويا لهول ما رأى ! . . . رأى ما جعله يسقط بدوره كالمصوق بجانب ضحيته وهو يصرخ :

- « أنت . . . أنت . . . غالية . . . ماذا صنعت بنا ؟ قتلتك بيدى لقد قتلت حبيبى بيدى ! . . . »

- أنت . . . أنت . . . ليسامحك الله !

- : لماذا تخرجين هكذا ؟ بهذا البرنس ؟

- : لأتقى أعين الرقباء . . . لم أطلق صبرا على غيابك قد طال .

- : رباه ! ماذا صنعت بك وبنفسى ؟

- : كنت آتية الى

وأغمى عليها . ورأى الدم يسيل من نحرهما على شالها الأخضر وضحك رجب ضحكة رنانة ، ضحكة الجنون .

وماتت غالية بعد يومين . وذهبوا بـرجب الى مأوى المجاذيب . رحمها الله .

خرج رجب من الخزن ، وقصد غابة البليدير . وكانت عشية يوم راحة ويوم صحو فى مثله يحج القوم الى غابة البليدير ، وتضييق بهم ماشيها نسوة ورجالا ، فتيانا وشيئا ، أطفالا ورضعا يروحون فى حضن الطبيعة ليتنفسوا من نسيهم المجدد للحياة .

اتخذ رجب مكانا غير بعيد من الطرقات التى يمر بها الرائيون والغادون : فمن أم وبنيها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة خيفاء تتأبط ذراع خطيب أو حبيب ، ومن شيخ وشيخة يشتركان فى جميل الذكريات ، إلا رجبا فلم يكن يصحبه إلا فؤاد مكلم تحرقه نار الفيرة . فلم ير من الناس ومرحهم إلا ما يزيد فى لوعته . فهم أزواج سعداء ، وهو الفرد المهجور .

وأقبل الغروب . وازدادت وحشة رجب فرجع الى المدينة يجر أقدامه جرا ، هائبا ، لا يدري أية جادة يتخذ . وقادته قدماه الى الحارة التى فيها البيت حيث تسكن الجيبة . ووجد نفسه فجأة أمام الزقاق . . . وأظلمت الدنيا . . .

توقف يفكر فيما يجب أن يصنع : أيطرق الباب ، ويطرح من كبريائه أمام عظمة الحب ؟ أم يتربص ليلة سابعة لعل غالية ترسل من يستدعيه ؟

رأى شبعا ملتفا فى برنس أبيض يخرج من البيت فى حذر . من لا يود أن يرى .

هو هذا الحل ! فهذا المتسلل هو الذى احتل مكانه من قلب غالية . إنها سلتته ، ولم تحفل بضيابه لأن قلبها فى قبضة هذا الذى يخرج من لقائها خروج اللص . وفصلا فهو اللص الذى سرق لرجب أنتم ما كان يملكه فى هذا البيت . لم يتمالك رجب من إخراج مسدسه ، وتصويبه فى حركة آلية صوب لابس البرنس ، وأطلق عيارا على المعتدى الأثيم .

وسقط الشبح على الأرض . وود رجب أن يرى وجهه هذا

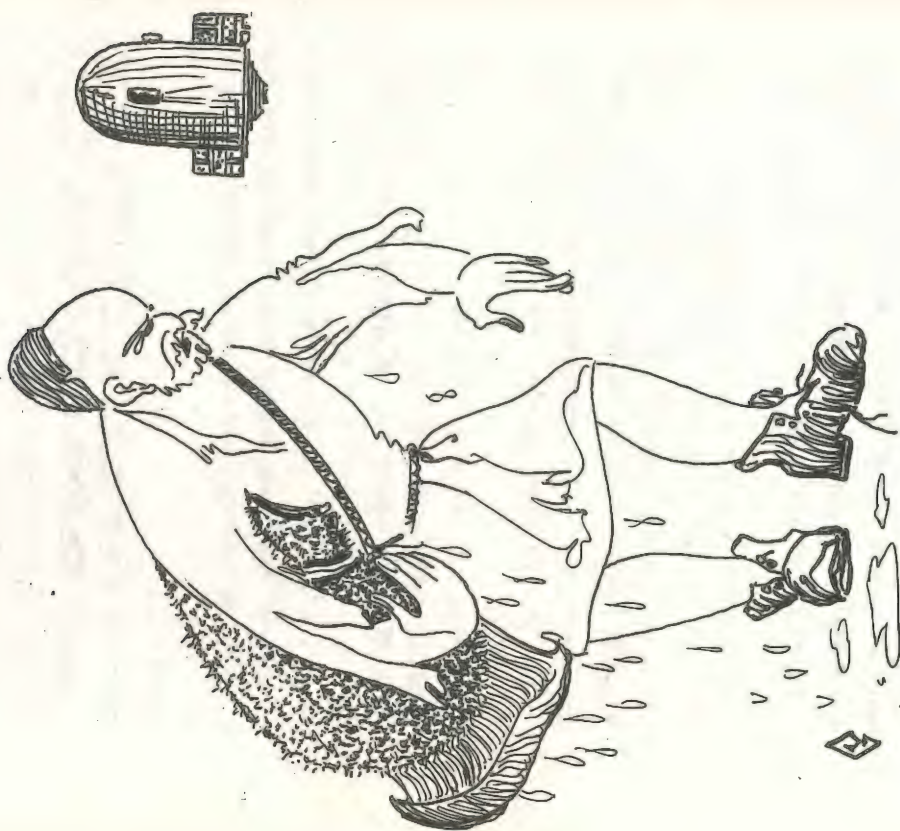
موت العم « باخير »

- 1 -

كان في الحارة التي ولت فيها عجوز سقاء يسمى « العم باخير » . وكان رجلا خيرا ، طيب القلب ، ورعا ، لم نشر له على زلة قط . إلا أنه كان شاذا في كل شيء . ولعل في شذوذه ما يحبه الينا ، نحن صبية الحارة ، ويشير فينا استطلاعنا ، ويجعلنا نترصد حركاته كلها .

قلت : إن (عم باخير) يعمل كسقاء . وكان يدخل كل بيوت الحارة يشاهد بحرية كل نساء الحارة ، يزود واحدة بالماء . ويطلب من الواحدة أن تعيره مهراسها ، ومن ثالثة أن ترقع له ثوبه . وكن جميعهن يقبلنه فرحات باسما .

كان (عم باخير) خفيف الروح ، دميما دماة عليها مسحة من جمال التناسب ، مما يجعل دماته مقبولة . فالأنف البارز المكور تغلوه عينان حمراوان ، تحتها فم واسع ، له شفة سفلى متورمة متدلية في مستوى أفقى مع ذقنه . وعلى الجميع لون من ألوان الاشراف وطلاء من البشر . وما يزيد في خفة طله أنه كان لا يملك صندوق ملابس بل كان يرتدى كل ما يشتريه .



حبة . ويأخذ « قصبته » يربت عليها بكل حنان ، وينفض ما
 قد علق بها من غبار ، ويضعها بكل توأدة وخشوع على شفتيه .
 ويضع أصابعه على ثقبونها ، ثم يسمى باسم الله ويقول :
 « اللهم إني نويت عزف « الطرق » الأول لروح أمي وأبي
 رحمهما الله » . ويأخذ في عزف « الطرق » وتخرج أنفاسه
 ونملا الجو الفائح النير برائحة الشمع ونوره . ثم يستأنف
 عزفه لأرواح الأولياء والصالحين . وهكذا ..

كثيرا ما نهاء فقهاء الحومة ، وإمام المسجد عن التزمير ،
 وعن هذه الطريقة التي سنها ، والتي لا تقربه الى الله زلنى .
 وكان لا يحفل بنهيهم ويحيب :

« أنا رجل عامى جاهل ، لم أستطع حفظ شيء . لقد
 دخلت الكتاب وخرجت ولم أتعلم إلا محي الألواح ... وإن لم
 يقبل ربي مني عزفى ، فهو لا يضصر بأحد ... غفر الله لي
 ولكم » .

ثم يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

« ربما رفعتنى الملائكة الأبرار الى البقيع يوم أموت ..
 على توقيع مائة « قصاب » أو أكثر ... »

ونحيب نحن الصبية :

« ربما ... »

ويستعيد « الفقيه الورع » بالله من شقاوتنا ، وجهل (الصم
 باخير) ، ويقول :

« إن الزبانية أنفسهم لا يحفلون بموت مثل هذا الزمار
 الجاهل والعنيد المقرور » .

فتراه مثلاً معتماً بعمه بيضاء عليها مجرمة حمراء ، ثم يربط
 الميخ يخط من وبر قائم اللون . ويرتدى في أوقات الراحة
 الجبة ، والبرنس ، والقشايية ، والبلوزة صيفا وشتاء .

كثا نراه طيلة يومه إما في عمله بين السبالة والبيوت ، أو
 جالسا على عتبة المسجد يذكر الله سرا وجهرا . أما في
 الليل ...

كان (عم باخير) يسكن مخزنا وهيه له أحد أثرياء الحارة
 ليستغله في مقابل اعتنائه بحمار يملكه صاحب المخزن . وكان
 حمارا « منبها » أعنى أنه لا ينهق إلا في ساعة بعينها : ساعة
 الغروب . وما يكاد يسمع (عم باخير) نهيق رفيقه حتى يقفل
 راجعا الى المخزن ويوصد بابه بكل المفاتيح والمناويس وتبتدىء
 حياته الليلية

وبعد أن يزود بيوت الحارة بما يلزم من ماء يخصص لنفسه
 الثلاث قرب الأخيرة ... قلت : لنفسه ، وسترى أى استعمال
 يستعملها (عم باخير) ؛ فهو يسكبها جميعا في برميل كبير .
 وكنا نحن الصبية ، نتجسس على (عم باخير) تجسسا
 مشينا لو كنا نعلم أنه تجسس ، ولكننا كنا نراه نوعا من
 « الفرجة » البريئة تسلينا لا أكثر ولا أقل .

وكانت في باب المخزن ثقبو بعدد أعيننا الصغيرة . فكنا
 نراه يتعشى أولا ما يوجد به صاحب المخزن ، ثم يوقد شمعات
 عديدة حوله ، وقد تبلغ في أيام يسره عشر شمعات وأكثر ...
 ويضع الشموع المتهبة حول البرميل على الأرض ، ثم يضع
 خشبة على قم البرميل الذي به الماء أفقيا ، ثم يجلس عليها
 واضعا رجليه في الماء . ويضع حول عنقه مسبحة ذات مائة

سهرت من البالي ...

- 1 -

كانت الحالة امرأة مثقلة الجسم ، يتحرك كل جزء منها بمفرده ، وهي تطلع درج السلم لاهثة ، شاحخة ، تنصب عرقا ، وهي تصرخ مداعبة ابنة أختها من قبل أن تراها :

- : أين أنت ؟ أين ؟ ما هذا بسلم ! هذا الصراط ! أين أنت يا فتاتي ؟ لمن الله هذا الشحم الذي يعوقني عن التنفس .

- : خالتي ! سلامتك يا خالتي ! تفضلي . هو ذا المقعد الذي يريحك ، ويريح شحمك . لكن دعيني أقبلك .

وتقبلها ، وتجلس الحالة على المقعد ، وهي تزيح عن وجهها العصابة السوداء . وتتفرد قليلا في وجه زكية ابنة أختها وتسالها :

- ما هذا ؟ ما لعينيك مورمتين ؟ أكنت تبكين ؟

- هو ذاك . . . لا يمكن إن أخفى عليك شيئا يا خالتي .

- ما أبكي عزيزتي ؟ ما أبكي صغيرتي ؟ قولي لحالتك الحنون كيف ؟ أتبكين في العام الثاني من زواجك ؟ هي أخلاق أمك المسكينة ، وهي في دار الحق ونحن بدار الباطل ، تتجلى فيك .

- 2 -

خزنت الحارة كلها يوم لم تر (عم باخير) أمام السبالة وإمام المسجد . وعلما من نسوة الحارة أنه مريض بشلل حل برجليه . وأن الثرى صاحب الحمار ، وكان خيرا بارا ، حملته إلى بيته وأوكل إلى بناته الأبنكار - وكن جميلات عفيفات - شأن تطبيب العجز والسهر عليه وخدمته . وقلن أيضا : إن الأبنكار الثلاث سهرن على علاجه كما يسهرن على خدمة قريب عزيز .

مات (العم باخير) مساء يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أمام الفتيات ، وهن يسقينه ماء الزهر بأيديهن العاجية ، غفر الله له .

أما فقيه الحارة وإمام المسجد ، فما زالا يرزقان من أحباس الأوقاف ، أطال الله عمرهما .

- 3 -

لاقيت في هذه الأيام أحد رفقاء الصبا ممن كان يصحبنا إلى سماع تزمير (العم باخير) ، وتذكرنا تلك الأيام ، وتذكرنا نقوب باب المخزن ، وتزمير « أطراق » العجوز وشموعه وسألته :

- ما فعلت الأيام بالمخزن ؟

قال :

- أكثرته إحدى جمعيات الموسيقى . رأيت أعجب من هذه الصدف ؟ حقيقة لا أعجب في أمر الله !



لقد كانت - رحمها الله - ولوعة بالبكاء ، احكى لحالك كيف تعيشين مع

- : كما وددتني أن أعيش في جهنم منذ ألقيت بي في جحيم هذا الزواج

- : هذا زوجك

- : زوجي ؟ قولي جلادى ، فقلبه قلب جلاد وهو يقتل كل يوم شيئاً منى . ستجدينى ميتة جامدة في زيارتك المقبلة إن لم أذب وأسل دموعاً من عيني .

- : خفى عنك احكى لى الاول بالاول ما وقع بينكما

- : إنه رجل خبيث أحمق ، سكير صكر كل ليلة ، ولا يأتي بعد كل منتصف ليل إلا ليعربد على وعلى طفلي ! آه ! لو لم يكن حمادى ابننا بيننا ! آه يا خالتي لقد كان فى أول سكراته يشتمنى شتما مقدعا ، وينعتنى بأقبح النعوت ولا يسمينى إلا بأخبث أسماء الأسماك والطيور : فأننى « حسب الحمار » بين الطاووس والوطواط ، أو بين التن و « النازللى » القبيح الرأس . ثم يجبرنى على إيقاد النار وطبخ « المشلوش » بعد الساعة الثانية من منتصف الليل ، وإلا فأنى استحيل فى نعتي الى حمارة لا تجيد الطبخ

- : أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! هذا شيطان ! .. وشيطان بنى القول ! ..

تقول الحالة هذا ، وهى تنظر شررا الى باب غسرة النوم الموصود كأنها تسأل قريبتها بعينها إن كان ما زال نائما أم حل خرج لتعرف أى طريق تسلك فى نقدهما له ؟

وتجيب زكية :

- : إنه لا يصح إلا بعد منتصف النهار كعادته .. وإن صبحا ، فلكي ينام ثانيا !

قلت : إنه يجب مطالمة مكتتب ، قلنا : لا بأس وهي وإن كانت ضرائر لك إلا أنها أخف وطأة من ضرة بشرية واحدة . لكن وصلنا لسوء المعاشرة والضرب اطلبى طلاقك ، وأنا الضميمة بحصولك عليه من أقرب السبل .

- كيف يا خالتي ؟

- « إن كان دمك هذا مثل الذي يجرى في عروقي (تقول هذا وهي تنظر الى معصمها المكتنزين ، والتي ضاقت بهما الأسورة الفضية) إن لم يكن دمك ماء وسكرا وعصير برتقال ، وإن كنت حقا ابنة اللبوة منجيه اختي - رحمها الله - فستقومين تورا الى لم أدبائشك وتخرجين معي الآن . وعلى أنا الباقى .

- 2 -

تخجل زكية وتصد بصرها لباب الغرفة ، غرفة النوم ، وتصوبه الى الارض

- خالتي لا ترفعى صوتك !

وتتحمس الحالة . ويهتز كل جسمها اهتزازا لا تجيده إلا المرأة الشعبية ، وهي غضبي . وقصرخ :

- لا أرفع صوتي ؟ سارفع صوتي ويدي ! لا أرفع صوتي ؟ ولماذا من فضلك ؟

- لنلا تزعجى تزعجيه !

- ازعج من ؟

- عو . دعيه ينام المسكين لقد سهر كثيرا ليلة البارحة يا خالتي . . .

- ينام ؟
بين الكتب والجرائد التي تأخذ كل وقته . فانه لا يكلمنى إلا وهو سكران . فان صحا فهو للكتب والاوراق . هي ذى تملأ كل الغرف . والويل لي إن فقد منها ورقة . ليتك زوجتى أميا مثل ! إن عشرة هذا لا تطاق .

- لا تطاق !

- تصورى أنه رجح ليلة أمس يتروح سكرا ، ورائحته كرائحة النسناش ، وعثرت رجله بكتاب آفاه الطفل المسكين ، ولم انتبه له ، فصب جام غضبه على الطفل ، ولطمه لطمه كادت تخرج روحه ، وودت افتكاكه منه

- الطفل أم الكتاب ؟

- الطفل يا خالتي ! حمادى فاطمنى أنا بدورى !
- كيف لطمك أنت ، ولا تقولين لي هذا من الأول ؟ آه إن الأمر أهم مما كنت أظن ، كيف ؟ أيرفع يده على امرأته وأم ولده ، هذا لا يطاق وصلنا الى اللطم ! اسمعنى يا فتاتى . أنت صغيرة ، فافتحى أذنيك الى نصائح خالتي المجربة : لقد زفقت الى ثلاثة رجال ، وأنا أعلم الناس بهم . إن الرجل الذى يضرب امرأته ليس برجل (تحدد الحالة كل الحلة ، وقصرخ في ابنة اختها) اسمعى ! اطلبى طلاقك منه ، وسنحاكه ، ونطالبه بتعويض ، وندخله السجن . إن القضاء ، وكل الشرائع (الخمسمائة دين) لا تبيح لأى رجل كان لطم امرأة ضعيفة . اطلبى طلاقك منه ! قلت لك اذ ليس يعد اللطم من معاشرة !
- الطلاق هو ذاك .

- « تصبرين على معاشرة هذا الفظ ؟ ! قلت : إنه أعنى ، قلنا لا بأس بكل الرجال . قلت : إنه يسميك بأنساء البهايم قلنا لا بأس سيغير نموته وتحسن معاشرتك له . قلت : إنه سيكبر . قلنا : لا بأس ستنتفخ كبده ويترك الحفرة .

تم سكت ، وتركنا متشوقين الى قصة شوق ابن السلطان
روية ما في الفرقة السرية . ثم بعد أن مسح نظارتيه .
وأشعل لافاة ، أتم حديثه قائلا :

- « كنت منذ سنوات عالجت في مستشفى امرأة من مرض
ما سرى حيث يقتضى الحق أشهراً متوالية . وكانت جميلة لولا
أن شوه الداء من شفقتها السفلى . وكانت . . . كيف أنصتها
لكم . . . » خضراء ، . . . لقد فهمت بلا شك ، أعني خفيفة . . .
وفعلا كانت خفيفة الروح تجيد الحديث في أدب وانزان لم
نعهده من مثيلاتها .

« قلت إن تطييبها يقتضى زيارتها مرارا كل أسبوع
للمستوصف حتى أنست بها وأنست بحديثها . ولا يقلقني كثيرا
أن أسعها تقص ما تمنائه المسكينة من مرير العيش . وقد
فقدت الفاض والبعض من رأس المال . وهذا ما جعلني أعالجها
مجانا . لا أقول هذا تبجعا ، وإنما الواقع أنى كنت أخنو عليها
بجانب لم أدر مصدره . كثيرا ما سألت نفسي : أى دافع دفع
بهذه المسكينة الى حياة استهتار وشقاء . وكنت أتصورها لو
كانت ربة بيت ، ولم أولاد ، وزوجة عامل مستقيم .

« تماثلت من البرء وانطفت كل عوارض ذلك الداء
« الواقع » . وأنتنى يوما تشكرنى على عنايتى بها . وقدمت لى
« مبسم » صدف مطعما بالفضة ، وقد لاحظت كثرة تدخينى ،
فقبلته ، وقد أعجبتى لطيف ذوقها فى الاختيار .

ثم قولها :

- هذا أقل من أن يقدم اليك .

فضحكت وقلت :

- « زبدبني - اذن - صديقه اخرى » .
جعلت المسكينة . . . ولم تدمر ما عنيته . وفتحت فيها

الفرقة السابعة

- 1 -

قال الطبيب ، وقد جذبناه بشتى الحيل للخروج من صمته :

- إن سر المهنة يمنغنى من إفشاء أسرار آبائى ، إلا أننى
سأقص عليكم قصتى هذه لما فيها من عبرة ، ولا أحفظ لسر
المهنة إلا بالأساء الحقيقية للأمكنة والأشخاص . وأقول : إنى
كثيرا ما استسمعت الى خرافات المجانز بها فيها من خوارق
أحداث الأغوال والمردة . وكما قال شاعرنا سكاليزى :

« قد أصدق الخرافة عندما تخرج من فمك يا أمى » . ولعل فى
القليل الذى سمعته من خرافة طباعتنا المجوز ، وهى تقصها
أمسى على أطفال البيت ما ذكرنى بقصتى هذه .

وقال أحدنا :

- ما كانت خرافة المجوز الطباخة ؟

قال :

- كانت تروى لهم قصة الساحر الذى اختطف ابن السلطان ،
وطار به الى القصر المسحور الذى به سبع غرف كلها ذهب ،
وفضية ، وعاج ، وأبنوس ، ولابن السلطان أن يدخل أيها شاء ،
وإن يصنع ما شاء بما شاء منها ، إلا الفرقة السابعة ، فمسجورة .
وتوعدده بالقتل إن حاول حتى لإلاج مفتاح فى كوتبتها .

وعينها ، مذهولة . فأنقذتها من حيرتها بتقديم كرسي لها وتقولى :
- لا . لا . ليس ذاك . . . سألوك منك شيئا أم لا ؟
من كل هدية مادية . أريد منك أن تعطيتى شيئا من سرى . . .
سر حياتك .

أما هي ، فكأنها لم تفهم . وعدت الى تفسير سؤال :
- « أريد أن أعلم أيمكن هذا ، ولم تخنك ذاكرتك عما
جذبك الى هذه الحياة . . . أعنى . . . »

اغروقت عينها دموعا ، وألقت بنظرها الى زجاج النافذة
اللاشفاف وكأنها ترى فيه شاشة في دمعها من أشربة لطفولتها
وصباها من شقاء وسعادة .

- « لا بأس عليك فالدموع تطهرنا من كل دنس ، وما
دامت في عيوننا دموع فلا بأس علينا . »
قلت هذا بصوت مرتعش وقد اخضل جبيني بالعرق ،
وللدموع وقار . حتى . . . دموع « الحضر » .

- 2 -

قالت :

- « لم أتصور مثل هذه الحياة ، وأنا فتاة ولو جلست بها في
نومي لصحوت فزعة الفزع كله ؛ فلقد ربيت في بيت محافظ .
وكان والدي - رحمه الله - رجلا من غير هذا الجيل ؛ شديد
الغيرة ، شديد المحافظة على العادات البلدية القديمة ، شديد
التزمت ، ثقة ، ورعا شديدا ، ومغاليا في كل شيء ، فلا
يتركنا نفاذر البيت حتى للحمام ، وحتى لديار ذويتنا الأقربين ،
ولا نعرف من الرجال إلا هو ، وجلدي . وعمي وخالي ؛ ولا من
النساء سوى أمي وخالتي . وكنت أنا وأخت تصغرني بسنتين

نجل عالم ما وراء جدران البيت . مع . . . فهو لا يحرمنا
شيئا من أشياء المأكول ، والملبس ، والزيينة من حل ، وحل ،
حتى الشموم والخاء ، واللث . لا أدري الآن إن كان يجب أن
أضحك ، أو أن أبكي من حياتي تلك . فلقد جاوزت السابعة
عشرة ، وأنا أجهل كل شيء عن الرجال . »

وقاطع الدكتور أحد الأصدقاء محتجا :

- « ما علاقة الحق والمبسم الصدفي بسر الغرفة السابعة ؟ »

وعلا ضحك الجماعة . وجذب الطبيب يد صديقه المحتج .
وبعد أن جس نبضه ، وبعد التحقق من أن المحتج غير مصاب
بجسمي ، ولا يخشى منه إلا عدوى الضحك ، استأنف حديثه :

- « لقد صبرت أنا أكثر من ساعة على سماع هذه القصة .
وأعنت محدثتي على ربط حديثها ببعضه . وأنت أعلم الناس
بتفكك أحاديث النساء ، وكيف يلجئ بك من حديث الطقوس الى
الحديث عن حلقة الحياطة ، الى غربال الشعر ، وأنت لم تطلق
سماها في عشر دقائق . سأصف لك بعد انتهاء الحديث وصفة
مفيدة لتهدئة الأعصاب . وكما قيل : « لو سكت لمت على جبل
عرفات » .

قلنا :

- « أتم حديثك ودعه يموت أين شاء . »

وعاد الى حديث المرأة . قال : قالت :

- « كثيرا ما كنا نسمع أمنا تحدثنا عن الزواج ، والأزواج
إلا أن كلا منا كانت تتخيل هذه الأشياء كما شاءت . »

وكنا نعلم أن أبي تزوج أمي ، وأمي ولدتنا . أما كيف ؟
ولم ؟ فهذه أسرار لا تقولها أمي حتى إنها تحظر علينا مشهد
مخاض قطنا « مرجانة » . وتسجننا في غرفة حتى يتم ذلك .

« كنا نسكن بيتا عتيقا بدور واحد ، إلا أن سطح البيت به
غرفة ، والغرفة محجر علينا دخولها تحجيرا كلياً . ولم نسر
والدى ووالدتي يقصدان الغرفة المتروكة . وتحجيرهما هذا
أذكى في نفوسنا نار الاستطلاع ، وترك لحياننا أن يتصور ما
شاء من أسرار وكنوز هذه الغرفة اللعينة . إلا أننا ما نصل الى
الدرج الموصلة الى الغرفة إلا وثنانا خوفاً من العقاب .
» في قبولة من قبولات الصيف ، وكان والدى متغيباً عن
الماصمة ، وكانت أمي تقيل في مقصورتها ، توأطت مع أختي
على شق عصا الطاعة ، والصعود الى الغرفة الجذابة على أن تطلع
كل منا بدورها ، وتبقى الأخرى للعسة . وسبقها أنا .

« لم يكن للقفل مفتاح ، وإنما بها مزلاج مصداً فتحت بهناه ،
وفتحت الباب ، وإذا بي في غرفة مربعة صغيرة ، كسا
جدرانها المنكيات والغبار ، وتمازجا ، وما تانست عيناي
بضئف نور الغرفة ، وتأنست رثناي بشقيل هوائها حتى رأيت
خلف الباب كوة صغيرة في مثل عنق القلة ، لا تحميها قضبان
حديد جعلت للتضوية والتهوية ولهلاكى أنا .

« أول ما صنعتته ، بالطبع ، هو التطلع لعالم لم تعد تحجبه
عن عيني الجدران الكثيفة . ورأيت !

« كان البيت الذي خلفنا يدار لاشياء « سرية » . وقد علمت
ذلك بعد . ولم أر ساعتئذ من كوتى إلا رواقاً صغيراً ، وفرشاً
مطروحاً على الأرض عليه فتى وفنأة أمامهما مائدة عليها قوارير ،
وكؤوس ، وشقة بطيخ أحمر ، وثلج .

« لم أنزل رغم إلحاح أختي إلا بعد نصف ساعة ، نصف ساعة
كدهر تعلمت فيها كل شيء . »



« وعدت الى غرفة السطح ، وعدت حتى تفتنت بذلك أمي ، وضربتني . وحتى علم بذلك أبي وضربتني الضرب المبرح ، وحتى الليلة التي وضعت فيها بشكيرا على رأسي وذهبت الى البيت المجاور » .

سكت الدكتور .

وسأل أحدها :

« ما فعل الله بالصغرى ؟ »

وسأل آخر :

« لم ترك والد الفتاتين الكوة ، ولم يعمل على سدها ، وكان ذلك حينها عليه ؟ »

لم يحفل الدكتور بهذه الأسئلة . ورآها خارجة عن موضوع القصة . وود لو يتبادى في تفسير « رد الفصل » في نفوس الأحداث ، وتأثير المفاجأة والمباغتة بالأشياء التي يجب أن تقبلها بالتقسيم . ووددنا نحن لو فعل ذلك ، إلا أنه تذكر وعدا فقام إليه وهو يزمر أغنية : الهوى والشباب ...

زفة راقية

وصلت القاطرة محطة رادس ، فنزلت . وبين غوغاء الباعة ، وضجيج المقتبلين والودعين ، وقفت أفكر أية جادة أتبع . وبلدة رادس تقسمها المحطة الى « رادس عليا » و « رادس الشاطي » ، وأنا لا أدري في أي القسمين توجد « فيلة » صديقي عبد الله التونسي . فلقد دعاني صديقي ، هذا ، الى الغداء في « فيلته » الجديدة . وهو كلف بها ، لا يتحدث إلا عن آخرها ، وما كلفته أبوها ونوالها . إلا أنه لم يذكر لي موقعها ، كأنه يظن أن « فيلته » عنده هي زهراء قرطبة ، أو برج بيزه ، أو مدفن حيدر آباد .

بقي لي أن أسأل عنه ! ولكنني الى أين أذهب . ومدينة رادس (R) بها ما يقرب من 35.000 ساكن . وأسأل بينهم عن عبد الله التونسي ، مع العلم بأن ثلث السكان مسلمون وأن كل حديثي عهد بالاسلام يتصورون بهذا الاسم .

وما أخرجني من حيرتي هذه ، إلا أن رأيت واقفا أمام باب المحطة ، وهو يجهد نفسه في عدة عبارات القطار .

(R) في الأصل (R) ولكن أذهب مكافئ لي ونعمي وبه ما ؟ .

قلت :
 - « هو ذا أنت ! » .
 قال :
 - « أهلا وسهلا . لقد ظننت أنك لن تأتي ! » .
 - : « هذه آثام . ألا تدري أن بعض الظن إثم ... وما دفعك الى هذا الظن ؟ » .
 - : « لا شيء ... هيا ... فهم يترقبوننا » .
 - : « من ؟ » .
 سكت صديقي لحظة - وقلما كان يجيب عن سؤال - ثم استأنف حديثه قائلا :
 - : « ستعرف اليوم أخي عميرة » .
 - : « وهل لك أخ ؟ » .
 - : « كل المؤمنين إخوة . أما هذا ، فهو أخى ، وإن لم يحملنا بطن واحد ! » .
 - : « هو أخوك من أبيك ؟ » .
 - : « هو نصف أخ لنصف أخى ... أعنى أنه ربيب امرأة أبى الثانية . وقد قدم اليوم من « الساحل » فى سيارته الخاصة » .
 ولا يذكر صديقي عبد الله سيارة أخيه الخاصة إلا كما يذكر « البرنس أوف ولز » قصر « برونهام » .
 اقتربنا من « فيلة » غربية الشكل . وسعّت صوتا فى داخل نفسى يقول : « إنها لعبد الله ! » فهى فى خارجها كشكول من كل الأشكال المصارية : فالطراز الأندلسى يراخه بمكيه طراز النهضة الإيطالية المزخرف بـ « لوييس الخامس عشر » ، وبزین الجميع جليز نابلى مشوش الوضع على ما تقتضيه الذوق العصرى الذى يكره التوازن .

فلو رأيت إذ ذاك صديقي عبد الله الثونسي ، وهو معتم بطربوش عليه عمامة حريرية ، ومزود بدلة إفريقية عليها جبة من قماش « القمرية » لعرفت مثلي أنه صاحب « الفيلة » . وجاء فى المثل السائر : « كل البيوت على أصحابها تقع » . هذا عن « الفيلة » وصاحبها . أما (ربع أخى صديقي) فقد وجدناه واقفا بجانب سيارته الخاصة ، وهو يتسلى بالتطلع فى دقائقتها ، وكأنه يراها لأول مرة ... وله الحق ، فهى أغرب منظرا من مسكن أخيه .
 سيارة لها كل الألوان ، وكل الأشكال . ولكنها لا تنتسب الى طراز نوع خاص . إذ هى خليط من كل أنواع سيارات الدنيا العتيقة والحديثة . والعجيب أن مجموعة القطع الحديدية التى يتكون منها محركها تدور وتدفع دواليبها الى الدوران . ولصاحبها أن يدور بها طرق الدنيا ، وحتى طريق الآخرة ، ولكنى لا أضمن له أن يعثر فى دورانه على شركة ضمان واحدة تضمن له هذا الكدس من الحديد والمطاط .
 وقدمتى اليه عبد الله ، فاذا هو رجل فى مثل سنن أخيه (أى : لا سن له) طويل القامة « يحمل » أنف ملاكم ، ونظارتين خضراوين ، وبدلة زرقاء عليها « كدرون » أسود ، ويتنعل « بلفة » صفراء عليها « جزمة » صفراء أيضا لامعة تسر الناظرين لعلها أثمن ما يرتديه . ولعل « تشريفيات » أخيه عبد الله جعلته يرتدى هذا الزى « الرياضى » ليعلم من لا يعلم أنه هو صاحب السيارة . وإن كان لا لزوم لذلك ، فلقد عرفت ذلك من نفسى أيضا (وقلب المؤمن دليله) .
 رحب الضيف بصاحب البيت ، وكنت أتوقع العكس : فهى فصاحة لم أتبعها جيدا لفأفاته وصمم أذنى اليسرى . والغالب على الظن أنه رحب بى أيضا ، ثم دعانا الى ركوب السيارة .
 قلت :

- : « سوف نتشرف بذلك بعد الغداء » .

قال عبد الله :

- : « سنتفدى على البسط الخضراء » .

قلت :

- : « أى بسط ؟ » .

وكانى حزرت ما يمينه فأتست سؤالي متعجبا :

- : « فى مثل هذه القيلولة ؟ » .

وأجاب عميرة الفأف فى ست دقائق جوابا لم يصل أذنى

منه إلا : ... ظلال ... وأشجار ...

ثم قال عبد الله :

- : « أنت فى مقام أختى هذا ، ولذا فانى سأقدم إليك

أختك » .

قلت ، وعلى فمى كل علامات الاستفهام والتعجب :

- : « أختى ! ! وهل هى هنا ؟ » .

- : « وأين تود أن تكون فى مثل هذا اليوم ؟

- : « حيث تركتها !

- : « وأين تركتها ؟

- : « فى بيتها ... طبعاً » .

وضحك عبد الله بأسنانه الصفراء . وضحك عميرة أخوه

ضحكة رياضية جعلت أنفه الرياضى أيضا يفور بين وجنتين

صغتاً من البطاطس الشهيرة بقرية غار الملح .

وتكلم عبد الله تقاطعه الفقهية ، وعميرة بفأفاته الضجيرة .

وفهمت أخيراً أن عبد الله يعنى بأختى زوجة المحترمة :

دخل عبد الله « فيلته » وخرج بعد قليل يحمل أطباقاً ثم

أطباقاً . ثم أخرج سلة مملوءة خبزاً ، وقواوير ، وحققاً .

وأخرج عميرة بسطاً و « كليماً » و « فاشكة » فى غلاف من

سعف أصفر وقفة حبلى كالدمر الذى ليس يدرى ما يلد ...

وأقبلت تتبعها « أختى » امرأة عبد الله ، وهى تنهادى فى

ملحفاتها الملوءة بها . وأقبلت تتبعها امرأة أخرى لم أر منها إلا

أنفاً يربو نياً عليه خال يقع على أعلى قمه ، ثم تبعتها عجوز رأت

أنها تختط العقود التى تحتجب فيها المرأة ، فكشفت عن

وجهها ، ورأت بشاقب رأيها أنها امرأة على كل حال . فزانت

هذا الوجه العتيق بحاجبين مدهونين بصباغ أسود فى غلظ

البنصر يمتدان أفقياً من الصدغ الى الصدغ ملتصقين .

ووضعت دائرتين من اللون الأحمر على وجنتيها . أضافت الى

كل هذا فماً واسماً قصيرة أسنانه الاصطناعية ، غليظة شفاه

الاصطناعيتان ، وبشرة لا تصلح الا لعالم أثرى أو طاوى آبار ،

ولولا خصلتان من الشعر الأسود الحالك تسترآن صدغى الأم

« ددو » وهى أحسن خصالها وتطيان هذا « القناع الصينى »

إطاراً جوريا يحبس الضحكة فى حنجرة الهازى لفضحنى

الضحك من هذه الفاسلة المتصايبة .

وأفهمنى عبد الله بإشارة « اشمسزازية » أنها حماته

- والعياذ بالله - ورحبت بنا ، أنا وعميرة ، الأم « ددو »

بكلسات تقال عادة فى مثل هذا الموقف ، وتقولها هى ، وهى

تتمطط وتغفر بكلتا عينيها النائرتين . وكان جزء من جسدها

يتحرك من نفسه ، لنفسه ، ليعبر عما يكنه كل هذا الجسم البالى

من بقايا عجب وغرور .

وتبعتهن فناة دون العاشرة . لا أقول عنها إلا أنها الكوليرا

الصفراء (لو كان ثمة كوليرا صفراء) أكثر حركة ودوراناً من

النحلة ، وهى كوم عظام متحركة يكسوها جلد شكلاطى وشعر

أصفر مشوش صفرة محلول « الاوكسيجينى » ولا ادرى لماذا

ذكرنى هذا التنافر بوجه الشروس .



جلست أنا وعميرة السائق ، وبيننا الفتاة الابليسبة على المقعد الأمامي ، واكتظ المقعد الخلفي بالمرأة المجهولة وبجسم الحماية المتصايية ، وجلس أمامها عبد الله وامراته . وبين أرجل الجميع كل القفف والقيروانات والأطباق ، وكان من حظي أن أودع عندي (فاشكة) وقفة فيها بيض وزبدة وعلب (السوافر) وتترك عميرة على الله ، وعلى محركه ، ونفقت سيارتنا دخانا من أمامها ومن خلفها .

وسارت بنا تتعشر ، والناس من حولنا يتشمسون ، ويوسمون لنا الطريق .

علمت أن الفتاة ابنة للمرأة المجهولة ، صاحبة الأنف البريوني والحال ، وأنها أكثرت من رفس رجل ، وأن كل العائلة تدللها ولا تنهرها ولا تردّها عن شيء لأنها ضيفة وابنة ضيفة ، وأنا ضيف مثلها وليس من مبادئي تحمل ثقل دل الضيفات الإبلسيات ؛ فلقد وددت أن أقذف بها من نافذة السيارة وأريح جنبي ورجلي من رفسها المتتابع ، وما منعني من ذلك إلا انشغال يدي بالقفة والفاشكة . فاللعينة تختار المخرجات الخطرة لتسك بيد قريبها السائق وتجذبها بقوة لتسأله بكل برودة عن اسم تلك الشجرة أو ذلك الشخص الواقف حذو خندق الطريق . وتصور أن السائق أبسط من الفتاة وأكبر منها حقا فهو يترك دفة القيادة لمشيئة الله ، أو تراه يحاول مسابقة سيارة الشخص موضوع السؤال ، أو تراه يحاول مسابقة سيارة النقل ، وهو يكرر نفخ بوق الانذار ، وهو لا يسابق إلا سيارات النقل ، فترمي الشيطانة الحبيبة بكل جثتها بين يدي السائق وتجعل من نفسها حاجزا بينه وبين الدفة ، وتكون إذ ذاك ساقاها ، بالطبع ، تملان في جنبي أو في ظهري رفسا موقعا على حسب الوحدة ... ولقد وددت ، والله ، فرصها قرصا لاذعا ، لولا خوفي من صراخها الذي سوف يزيد في التشويش على السائق المسكين ، وبين يديه دفة القيادة ، وحياة رقطاء ،

هذه العين لا يعلم مكانها الا عبد الله . وإرشاده ، تركنا
المادة المعبدة الى طريق لا تطرقه الا الأرجل ولا تطرقه الا
نادرا ، كثر فيه تعثر السائق والسيارة .

أما أنا فاني كنت شديد الوثوق من أن الوصول الى عين
زغوان أهون وأقرب من عين لا يعلم مكانها إلا عبد الله .
وما زلت أذكر لصديقي عبد الله نوادر غريبة في أمره
بالعروف ونهيه عن المنكر ؛ فهو أحب الناس لفعل الخير
وإرشاد الضال . . وإن كان قليل التوفيق ، فليس الذنب في
ذلك ذنبه ، وإنما الذنب ذنب من استناده وعمل بمشورته ،
ولا أنسى يوم كنا في مدة الاعتصام بحمام الأنف ، إذ ذاك
عشرة أضعاف ما كان به من سكان قبل الحرب . وقل الحبز
قلة أقلقتنا على بطوننا وأجاعتنا ، فكان اللاجئ منا يقضي
الساعة والساعتين في صف المخبز لأخذ حصته . وفي يوم
كنت قضيت ساعة ونصفا في ترقب دوري أمام المخبز ، ولم
يبق بيئي وبين الباب إلا أفراد قلائل ، وإذا بصديقي عبد الله
أمامي لا أدري من أين أتى وسألني .

- ماذا تصنع هنا ؟ -

كانه لا يدري . ما كنت أصنعه وأجبتة :

- أشتري الحبز .

فاقترب مني وأسر في أذني :

- لماذا لم تستشرنني في هذا ؟ اسمع وافهم : خبز هذا
المخبز أردأ أنواع الحبز ، ولي خبز صديق صدوق ، وخبزه أشد
بياضا من خبز هذا ، سأقلدك له ، وسوف يعطيك ما تشتهي
من أرغفة ومتى شئت . هيا اتبعني .

قلت ، وأنا لا أود أن أترك مكانني من الصف :

- لنترك هذا الى الغد . ها أنت ترى أنه لم يبق إلا دقيقة

وأرواحنا جميعا .

كنا نسير في طريق سليمان في سرعة لا وجوب لنكرها .
وكانت الفتاة لإسة حذاء من قماش به رباط طويل ، وما رأيت
أشجارا إلا وقلبت هنا مستغنى بحول الله . ويسر عميرة
السائق بالأشجار وكأنه لم يجمع ، أو لم يرها ، وتناقبت الحيات
والرفسات ، وأطرقت أفكر في أمر هذا الغداء الذي لن يحين
أجله قريبا ، ولم أعد أحفل بأشجار الطريق ، ومن عاداتي
المعروفة أنني كلما أطرقت أفكر في شيء أخذت يداي في عمل
شيء ، وفي حركة آلية ، بدون أن أقصد ذلك العمل لذاته ،
والغالب على ظني ، أنني في إطراقي إذ ذاك ، كانت يداي تعينان
برباط حذاء الفتاة ، ولم أدر الى الآن كيف دخل رباط الحذاء
في أذن الفتاة ، ولم أدر أيضا لم اشتبك بنفس الحركة الآلية
برباط الفاشكة . ولكم أن تعتقدوا سوء نيتي أو حسننها ،
المهم ، والواقع ، أن الفتاة جذبت في صراعها المستمر رجلها
قجاة ، وفي حركة آلية أيضا ، جذبت معها قفة البيض تتبعها
الفاشكة في ثوبها القشبي ، وأخست الفتاة بدورها بنقل في
رجلها فأعادت الحركة غضبي : وتناثر البيض ، وتناثرت
السواقر ، وقطع الزبدة ، واختلط أبيض البيض بأصفره ،
واختلط كله بملايسنا ، وفاحت رائحة ما في الفاشكة قبل
كسرها ، وكثر تساؤل القوم عما وقع كأنهم لم يروا ما فعلته
أبتهم بالزبدة والتبغ والبيض . وبما أنهم كانوا يودون إيداعه
بطونهم ازدانت به ملايسهم الأنيقة ، وكان حظي مما فعله
الرجاج بيدي ورجلي أكثر من حظ الجميع .

وبالضبح ، أضافوا بخت هذه العملية الى حساب البنت
الدلة ، ولم يفكر أحد منهم في اتهامي بشيء ، وبعد عمليات
الكنس والمسح ، استأنفنا السير لا الى المكان المعين للغداء ،
ولكن لعين قريبة من ذلك المكان لنزيل بها ثوبا ما علق بنا من
أبيض وأصفر وأحمر .

وأجاب عميرة :

- بالمحرك خلل بسيط .

ونزل إليه يخبره ، ثم أردف قائلا :

- هما الشمعتان .

وسالت العجوز :

- هل قضاء بالشمع ؟

وقالت امرأة عبد الله في لهجة الجبيرة بكل الأمور :

- لقد كذبت حاسة شمي مرارا وأنا استنشقت شذى شمع

يحترق . . .

وقال عبد الله :

- لا ، تلك رائحة البيض امتزجت برائحة كحول

الوقد .

وأخذ عميرة في اصلاح شمعه وأخذني خوف من اصلاحه

أكثر مما كان أخذني من سياقته المشاعبة المعينة .

ونزلنا نستكشف المكان الذي أوقعنا طالعنا فيه .

وقال عبد الله : إنه يعرف المكان جيدا ، وهو يعرف كل

شيء جيدا ، وهو يقترح أن يبقى عميرة يحرس الحريم ويصلح

ما أفسده الدهر من محركه ، وهو يدعى أنه يعلم مكان العين

المزعومة . ولكننا الآن اقتربنا من بشر فلنذهب أنا وهو والفتاة

لنستسقي منها . وحملت أنا وهو دلوا من قماش ، وحملت

الشيطة الصغيرة « شربية » ودلنا عبد الله على الطريق

كعادته . وبالصدفة التي تعترضنا مرة في العمر ، وقعنا على

بشر وتسايقنا أنا والفتاة إليها . وإذا بعبد الله يتبعنا منذ رأى

ماء هذه البئر شديد الملوحة ، ويخلف شرب مائها حصى في

الكبد ، وأن البئر التي يقصدها هي غير هذه . وبنفس

الضعف المخجل ، اتبعنا الدليل الذي لا يرحم جوعى ولا الفتاة

التعثرة برباط حذائها . وكان يسرع في خطاه نحو أرض

جبيلية . وأخذنا في تسلق ثناياها في عناء شديد . وبعد قطع

واحدة لاخذ حصتي من هنا .

وكانه غضب من قلة ثقتي بصداقته للخياز صاحب الجبز

الأبيض فقال :

- هيا اتبعني . وسوف لا تندم . . . مالك . . . أتشك في

صدقتي . . .

كنت أعلم جيدا أنني سأضيع فرصة ترقبتها ساعة ونصفا .

ولكن قوة خفيفة في عبد الله وخجلا وضعفا مني ، دفعتني إلى

سماع ترهاته . فترك مكانتي آسفا أمام تعجب الناس .

وذهبت أتبع عبد الله . وبعد أن جينا البلدة ومررنا بثلاثة

مخابز وصلنا إلى الكوشة المقصودة وإذا بها موصودة الأبواب .

وقال عبد الله :

- لعله نزل إلى تونس يتناع الدقيق .

لم أجب بشيء ، وإنما رجعت على عقبي إلى المخبز الاول .

ولم أصل إليه إلا بعد أن نفذت كل الأربعة ، ولم يبق إلا أنا

وعبد الله وجياح يترقبوني في البيت .

كل ما وقع أمام المخبز وقع في التفتيش عن العين . فبعد

أن دخلنا أرضا رملية رخوة كسبخة لا يسير فيها « الطنك » ،

إلا بصعوبة قصوى ، وبعد أن بعدنا عن الطريق المعبد بما

يقرب من تسعة كيلومترات ، وقفت بنا السيارة وصنرخت

امرأة من خلفنا :

- هل وصلنا إلى العين ؟

وقالت أم الفتاة :

- لقد قرص الجوع مصارن ابنتي !

كانها هي في مأمن من قرصه .

وعربية ولا تبينة لأعلام نصحوا بذلك . وارتجلت حججا وحججا لا شك أنها أبرد بدرجات من الطعام البارد إذ لم تهضها أدمغتهم المتخمة بأشياء أخرى لا داعي الى ذكرها هنا . وعوض ما كنت أتوقعه من تصفيق حاد متواصل لا نهائي . . . ختمت محاضرتي باحتجاج المعجوز :

- بالله هلا أضعت وقتك هذا في جمع شيء يوقد أكثر من الحديث ؟؟

وقالت إحدى المراتين :

- حديثك يفيد كثيرا لصنع (الجيلاط) .

وودت أن اهرب منهم الى الشيطان ذاته لو علمت عنوانه .
 وود صديقي عبد الله أن نهرب منهم الى التفتيش عن الحطب .
 ولم أجد مخلصا إلا أن أجيبه بالوافقة ، وأنا أنوى التخلص بالهروب منه في الطريق .
 وسرنا ، وأنا أردد في نفسي قول الحمار الفيلسوف . ولا أعني به الفيلسوف الحمار فتنبه ! عندما قيل له : « إن أصحاب عرس يدعونك الى الوليمة » .

فاجاب برصانته المهودة وهو يحرك أذنيه : « هذا إما لحمل الحطب وإما لحمل القرب » .

وقال عبد الله : إنه يعلم مكان غاب صفيبر به حطب ، وذكر حديث اللدغ والجحر ففتحت مذاكرة مع الداعي قلت :

- أتري الجبل ؟

قال : نعم أراه .

قال: هذا وهو يضع نظارتيه كان (بوفروين) لدقته لا يرى بدونهما .

ما يقرب من ثلاثة كيلومترات ، أخذ يفتش عن مكان البئر وكانت الغتاة التي تصحبنا أشد ضيافة منا فانها سألته :

- هل تفتش عن بئر لتخفرها الآن ؟

وكما توقعت ، فقد رجعنا بأوائنا خفيفة الى البئر الأولى ، ووجدنا ماءها حلوا مستساغا ، روانا ، وأزال عنا ما علق بنا من أبيض وأزرق .

رجعنا الى المكان الذي تركنا به السيارة والنساء . ووجدنا عميرة قد جعل من سيارة واحدة ألف قطعة حديدية ميثونة هنا وهناك .

ونظرت الى ساعة السيارة . والمعجب أنها هي الآلة الميكانيكية الوحيدة التي تسيير بشبه انتظام في هذه السيارة الملعونة . وإذا الساعة الثالثة والنصف ، ولم يبق أمامنا إلا الأكل وإرجاع الألف قطعة محركا ، ولم يبق إلا أربع ساعات ونصف للغروب وعوننا بالله .

لنترك عميرة يعبت بأسطواناته وأقراصه المرعبة والمسدسة ، وهو يعوم في بحر من الكلايب والمطارق الميثونة حوله بث الزيتون على بسط القاطفين (ولا أقول الجناة عمدا) لا نسمع منه إلا (تيك تيك دم درن درن) مما يشكوه الحديد من أصابعه التي لم تخلق إلا للتدخين ، ولننظر في أمر الغداء

قلت آنفا : إن الكحول الذي أعدوه للطبخ قد أريق وكسرت فاشكته أشنع تكسير ، ولم تبق من طريقة لإيقاد نار إلا جمع حطب ، بشرط أن يكون قابلا للالتهاب . وحزرت بقطعة لم أفطن بوجودها قبل تلك اللحظة في يا فسوخي أن عمدة التحطيب مستنطاب بنا أنا وعبد الله والفتاة .

ورأيت هنا أن الأهون هو أن أقوم بمحاضرة طويلة مقنعة في فوائد أكل الطعام باردا . وارتجلت لهم أسماء يونانية

وفي كل مرة تصرخ أمها بصوتها الخلقى :

— ابتعدى يا كبدى لنلا يشويك اللهب لا شوى الله كبدى
فيك يا عزيزتى ، يا كليتى ويا عصفورتى .

وتبقى تشبهها بكل الحيوانات البرية والبحرية . أما الكبد
العزيز ، فهي لا تحفل بما تنشره أمها من جواهر بلاقتها وقد
انحصر همها في أن ترى النار « ترعى » بستانها « الزهر » .

كما أنى لم أحسب حساب النكهة التى سيخلفها البنزين
فيما كتب لنا أن نأكله من الفداء ، كنا إذ ذاك نحرق أصابعنا
بالتوالى ، ونحن نتبادل حراسة الأطباق على آثافها ، وكلنا على
النار (أعنى : نحن والأطباق) . وفرشت البسط وحيئت
الأماكن لكل منا على قاعدة عدم اختلاط الجنسين . وفتشنا عن
عميرة فى خضمه المديدى فلم نجده . وبعد البحث والفحص
وتتبع آثار رجله فى الرمل عثرت عليه الفتاة العنود تحت
السيارة يتظللها وليضللنا نحن بدورنا . ادعى أنه كان يصلح
خيوطا فى أسفلها هو الذى لم يتمكن من اصلاح
أعلاها وعلى كل حال ، لم نحفل كثيرا بما يصلح أو بما
يفسد أو بما يقول .

وكانت الأطباق تفوح بهارات ، وفلفل ، وبنزينا ، وكان
الطبق الأول سلاطة ، قد حضرتها الحماة السليطة كأحسن ما
« يسلط » من طماطم وفلفل أخضر . وكان طبقا لذيذا لولا
أنها غلظت غلظة أو غليظة إذا شئتم . هي أنها اختلطت عليها
الحق والعلب ، فوضعت النأى الأخضر عوض النعناع الشهى ،
كما اعتاضت عن الملح بالسكر فى طبق « الكوشة » وحصل ما
يتوقع من جراء غلظاتها هذه ، إذ هي كما استعاضت عن الملح
بالسكر فى طبق اللحم وضعت ملحاً ونعناعاً فى « البراد »
المعد لتحضير ما يمكن أن يكون تأيا .
انتهى غداؤنا . ولم نأكل منه إلا الخبز والماء ، وقام عميرة الى

قلت : أوفيه حطب ؟

قال : بدون شك ! هذا الشائع عنه !

قلت : أليس هو الثاب الذى تعنيه ؟

قال : الثاب حوله ، أعنى بقره .

قلت : فى كم من الوقت فصل الى حطبه ؟

قال : أراه قريباً .

قلت : سألئك عن الوقت .

قال : بالضبط ؟ لا أدرى ، ربما فى نصف ساعة !

قلت : ما أحسن ظنك بالطرق ، بيننا وبينه ساعات طويلة ،
وسوف لا نرجع منه قبل الغروب وقد فعل الجوع بنا ما تعلم
ولم يبق إلا أمران ولك الخيار فما اخترته عملنا به .

قال : هات !

قلت : خذ . . . إما أن نتقذى غداً كما كنت أنصحكم ،
بارداً شهياً ، وإما أن نوقد بعض هذه الأعشاب بعد أن نسيقها
بنزينا .

قال : وقد فتح كلنا عينيه ولم يخلق بعد ذلك إلا واحدة كمن
فهم جملة من جعل « نيتشه » .

البنزين والسيارة ؟

قلت : وهل بقيت سيارة ؟ وقد فعل بها عميرة ما فعل !
هى اليوم لا تمشى بينزين طبيعى ولا صناعى فانتستعمله
للوقود خير من عدم استعماله مطلقاً .

ورجعنا ببعض الأعشاب وأولعناها حسب ما تأمرنا عليه .
وكانت فكرة مصيبة بعض الاصابة إذ انى كمدتني لم أحسب
حساب الفتاة التى لم تر النار حتى أصبحت كالفراشة (أعنى :
كالفراشة الجوية) نحوم حولها حبا لها وعبادة وشيطة .

قدرة تضجر أنه وأنف بخله .

وبعد أخذ ورد ، أقنعت بأن سيارتنا لم يبق فيها ما يخشاه ، أولا : لأنه سيجرها هو خلفه بعربته ، ولا خوف هنا إلا من غازات بخله فقط . ثانيا : أن في صحبتنا « حريبا » لا يمكن أن نتركه يخلد في هذا البرزخ الرمل . وما زودته اقتناعا بأن عمله هذا إنساني إلا عندما وعدته بمكافأة تقضى أطيب الناس أمثاله على فعل الخير وإغاثة المرأة الضعيفة (آه لو علم المسكين كم هي ضعيفة) .

ما رأى عبد الله العربية حتى التفت نحوي مذعورا ، وسألني في حدة لطيفة :

— ألا تكفى هذه السيارة الملوثة وما نقاسيه منها حتى تشفعها بعربة قدرة كهذه ؟ ما تريد أن تصنع بها ؟

وأقهرته أن العربية القدرة ، هي كسفينة الطوفان لا في قدارتها ، وإنما في فائدتها . وهي الوسيلة الوحيدة لإخراجنا من مأزقنا هذا .

أقنعت عبد الله ، وهذا سهل وأيم الحق ، ولم يبق إلا أن نتعاون أنا وهو على عناد أخيه عميرة الذي تنقص ثقته بسيارته وبنفسه ، والذي أمام الواقع المر يحاول أن يقنعا بأن إصلاح « الموتور » لا يكلفه إلا نصف ساعة من الوقت على الأكثر ، ونحن كلنا نعلم — وهو في ضمينا — أنه قضى أكثر من ساعتين في فكّه وتقطيعه . ورأينا أن البحث البيزنطي لا يفيد مع أهل بيزانس ولا مع عميرة . وحفظا للوقت أخذنا في لم شعث « موتوره » ووضعنا في القف والأطباق والصناديق ووضع الكلل مع البسط والعجوز المزهوة داخل السيارة . وبالرغم عن امتناع عميرة ، أخرجنا حبلا أحكامنا ربطه بين مقدم السيارة ومؤخر العربية . ولم يبق إلا أن ندفع أنا وعبد الله وعميرة

إفساد ما بقي من سيارته وهو يهيب بأخيه :

— هيا إلى إرجاع هذه .

ويعنى بهذه الالف قطعة الحديدية .

وضحكت ضحكة مكتومة من غداثنا هذا ، ومن حياتنا هذه ، فكل جزء من حياتنا يعيد نفسه في كل لحظة . ها نحن أخذنا طبيات الحياة الشهية ولم نقنع بها كما خلقت ، ووددنا تحسينها ، وتكيفها ، وصلها ، وترقيتها ، فتشعبت ، وأضحت كطيات غداثنا هذا

وكانت غواثنا البشرية تسيرنا وتسير فينا من نفسها بنفسها ، كما كانت تسير سيارتنا . وأتى جماعة من علماء وفلاسفة حكاء ، وحاولوا إصلاحها ودرسها وحصنها لطرح ما فينا من شر وقلعه قلعا ، وتحسين ما فينا من خير ، ففصلوا بعضها عن بعض وأوقفوا سيرها ، وجعلوا من غريزة البشر آلاف الكتب كل كتاب يحوى آلاف الفكر المفككة المطروحة (كرواشك) سيارتنا التي لا يمكن أن تسير بعد الا مجرورة إلى هاوية (جبل الجلود ، ويبدون فيل) حيث تطرح القطع التي لم تعد تصلح .

هذا ما فعله عبد الله بغداثه وما فعله عميرة بسيارته وما فعله بحياتنا وأنفسنا دوما . فالويل لأنفسنا منا . كنت أقول هذا ، وأنا أستعيز بالله من هذه الأفكار القاتية الكالحة . وأنجّه نحو نقطة سوداء كلما تأملت فيها ازداد حجمها كبيرا ، ولما تبينتها فإذا هي عربة نقل ، يجرها بقل قد تدلى لسانه إلى جانب أحد فكيه ، كما تفعل بغال تنظيف العاصية في فصل الحر . واتجهت مسرعا نحو السائق ، وأنا أدري جيدا ما نويت القيام به ، فقد فقدت كل ثقة بالسيارة والمسير لها . ووجدت سائق العربية رجلا بدويا يحتقر السيارة ومخترعها الكرام ، ويكرهها كرها شديدا ، لما تخرجه خلفها من دخان وغازات

السوداء والصفراء ، وهو يصل الى مرفأ الأبحار بعد قطع أدغال افريقيا أو جبال الهملايا ، الحاصل عندك من عملية الحساب ، هو ما شعرنا به جميعا ونحن نصل الى الطريق المعبدة ، جادة النجاة . فالنساء تولون بكل حلولهم ، ونحن نتبادل التهانى : هذا يداعب عنق البغل البطل ، وذاك يطنب فى مدح السائق البدوى ويصفه بكل أوصاف حاتم طى وعنترة بنى عباس .

وصلنا على الساعة السابعة والنصف الى بلدة حمام الأنف فودعت عبد الله وعميرة ، وشكرتهما على ما لاقيته من حفاظة فى هذه النزهة اللطيفة الرائقة ، وتواعدنا على إعادتها فى الاسبوع المقبل ، وأنا أضمر إخلاف الوعد على أن نهيم غداها باعتناء أكثر ، وودعتهما وأنا أبكى بدموع الأسف على فراقهما ، والسرور بنجاتى ووصولى الى بلدة بها محطة للقطار ، حتى أنى من فرحتى قتلت الفتاة الشيطانية ، ودخلت مشتى حمام الأنف أفقتش عن مطعم

السيارة من خلف لتعين البغل على جر هذا القطار الصغير . وخلفنا النساء يتبعننا متشترات ، ومجمجمات متنهديات الواحدة خلف الاخرى على طريقة الهنود الحمر . كان عملنا شاقا . وكان الجو مقبها قاتما يشبه تماما أجواء نفوسنا القلقة المضطربة بين أمل الوصول الى رادس وخيبة المييت فى هذا القفر بين الحرف والجوع . وهذا ما جعلنا ندفع السيارة بكل ما أوتينا من قوة . وهذا ما دفع شيطاننا الصغيرة لجر ساقها جرا ورفع الرمال التى يحملها الريح ويدروها فى عيوننا وأنوفنا بكل أمانة .

كنت وأنا أدفع السيارة ، مجبورا على لمسها بكفى مششزا من لمس هذه المادة اللعينة التى يسمونها الحديد ولم يشق الإنسان إلا حين أراد أن يستغنى عن أخيه الإنسان ويستعير عنه بالحديد . وأخذت أفكر فى الحديد ، وفى عصرنا هذا ، عصر الآلة والحديد

كل منا له فى بيته ركن للمهمات ، تلقى به الأشياء التى لم تعد تصلح لشيء وأكثر هذه الأشياء من هذه المادة المشروومة «الحديد» . وكل هذه الأشياء اقتنيها يوما ما فرجين ، كأحسن وأنفع اختراع أحدث لراحتنا . فهذه الآلة لغسل الصحون استعملتها يوما وبعض يوم ، ووجدت أنها تكسر من صحنوك أكثر مما تغسله ، واستعملت أسبوعا على الأكثر ، ثم ألقيت فى ركن المهملات ، لأن المرأة الضعيفة وجدت أنها تنزع منها صبرها ومن وقتها الشمين أكثر مما تنزع من قشور ولب ، أمثال هذه الآلات الحديدية لا يقع تحت حصر ، فكلها مقيدة ، وكلها استعملت أياما ثم ألقيت فى مقبرة الاختراعات .

* * *

تصور فرح كولومبس وهو يرى شواطئ أمريكا ، ثم بعملية حسابية بسيطة أضربه فى فرح قائد رحلة «سيتروان»

ام سو

مقدمة أم حواء

على نمط ولسان : طه حسين

قدم إلى ابني وصديقي على الدواعي قصته هذه قبل الطبع ، ثم قدمت إلى بعد الطبع ، وقد أعجبت بقصته ، كما أعجبت بعنوانها (أم حواء) ، وربما أعجبت بعنوانها أكثر مما أعجبتني القصة ، وأنا معجب بالعناوين أيما إعجاب !

قد لا يكون عنوان قصتنا هذه طريفا ، وقد لا يجري به اللسان في سهولة وقد لا يستسيغه السمع ! وقد يكون هذا العنوان غريبا ، وقد لا يخلو من بعض النفرة ! بل قد يكون غامضا بعض الشيء . ولكن توضيحه يسير ، ومع كل هذا ، فالعنوان صحيح ، وهو يختصر القصة كلها فالقصة هي قصة (أم حواء) .

أملك في هذه القصة امرأتان ، أو على الأصح أملك امرأة وابنتها ، أملك امرأة عجوز تحب ابنتها أيما حب ، وتعثر عليها أيما حنو ، وأملك هذا الزوج - زوج حواء - وقد اختار له صديقي المؤلف اسم (آدم) وقد أحسن اختيار هذا الاسم لهذا الزوج الذي ضاق ذرعا بحماته التي يدفعها جها لابنتها أن تباصب نسيبها (آدم) العدا ونشأ عنه مصاعب وعتاب لم يكن لتذليلها من سبيل .

نهاية أعزب

- 1 - (*)

وقعت حوادث قستنا قبل صدور قانون التمسك بقرون
(...) والرغوب من حضرتكم إخلاء الجبة في ظرف ثمانية
وأربعين ساعة وليست دعواكم من أن (من واجب الملاك وضع
حاجز بين كرامة سكانكم وسانية التفاح) ليس من الوجاهة
في شيء ، وكان من و بكم أن لا تمسوا رزق غيركم بسوء .
أما وقد فعلتم وشهد الشهود ممن يستشاق بشهادتهم أنهم
راؤكم وأنتم تسرقون الغلال ليلا النى منها والناصح بمعونه
ألقى فقد حكمت المحكمة بأن تغلوا الكرامة كما وجدتموها يوم
سكناكم من الأجل المذكور أعلاه .

تنبه : أرسلت نسخة الى جارتكم (أم حواء) وابنتها
لوقوعهما في مثل ما وقعتم فيه .

(المسجل : عزرائيل)

(*) ذكرت مجلة « العكس » أن لهذه القصة خمسة فصول . أما الفصلان ربي
(2 - 3) فقد تسلطنا من الامتطاء لتوثيق بكامل - مشكوراً - بخلاف
مخطوطة المبرق .

في هذه القصة نظرية تناقض نظرية العلامة «ديكرت»
في موضوع الحماة . وتناقض أيضا نظرية بول «هرفيو»
كما تناقض نظريات الاغريبيين - بما فيهم من سقراط
وأبقراط - مناقضة تامة . ولكنها مع ذلك صحيحة
صادقة . نظرية تثبت خطر الحماة ، وإن معاشره الحماة
لا تضمن خيرا ، لا لابنتها ولا لزوج ابنتها . وهذا
يستلزم شقاء وآلاما أكثر مما يستلزمه موت الحماة حيث
لا يدوم حزن ابنتها عليها أكثر من أسبوع أو أسبوعين
على الأكثر ، وإذن فحياة الحماة لا تضمن الخير ،
والانسانية مضطرة أن تضرع الى الله أن لا يبقى حماة
على ظاهري الدنيا . وهي مضطرة الى هذا الدعاء أيضا
اضطراب !

طه حسين

طبق الأصلي : على اللوعاجي

وقع هذا الاعلام في يد آدم وقور الصاعقة فهو حديث عهد بالحياة وهو في حيرة من أمره . أين يذهب بعد مضي الأجل المضروب ؟ أين يسكن ؟ ولكن بيوت الحارة عامرة ! لم يبق أمامه إلا أن ينزل الى الأرض . نعم ! ولم لا ؟ أليست الأرض أوسع بكثير من عدن المرصومة باللائكة رصا ، وهو لم يعد يطبق معاشرتهم بعد ما شهر أمر سرقة للغال ؟ نعم . قد حلت الهجرة الى الأرض حيث لا يعرفون عنه شيئا ، الى الأرض مأوى الجنة أمثاله .

بينما هو في تأملاته اذا بباب الكرمة يطرق خفيفا . من يكون الطارق يا ترى ؟ أهو محضر آخر أتى ببطاقة أخرى ؟ أم هم أعوان الشرطة الزبانية اتوا لاجراجه بالقوة ؟

وجم آدم لحاجة موقفه ذاك . وأخيرا بعد أن شجع نفسه بكوب (كوتر) ممزوج بقليل من الماء تقدم وفتح الزلاج واذا بالطارق ابنة جارتة وشريكته في الجنابة تدخل عليه وهي متقبضة النفس تحمل في يدها جريدة (صباح الجنة) وهي الجريدة اليومية الوحيدة التي كانت تقطع إذاك في (عدن) .

أخذ الجريدة بدون أن يفوه بكلمة ، وبدون أن يرد سلام جارتة اللطيفة . أجال فيها نظراته المتهبة . وفي الصفحة الثانية تحت اعلانات (سيارات فردوس) في المكان المخصص من الجريدة لقضايا البوليس الملائكي ، قرأ آدم ما يلي تحت عنوان (سرقة) :

« حكم أمس على المسمى آدم ، القاطن في شوارع سدرة المنتهى وعلى المسماة أم حواء وعلى ابنتها ، القاطنتين في نفس الشوارع المتهمين بسرقة سائبة التفاح الواقعة في شرق الشوارع نفسه » .



ولقد أعجبت هذه النجوم التي تشبه دموع حواء ، والبدر ! !
إنه ليشبه تلك الدمة الالامعة على شفقي حواء . وكأنه تذكر
القبلة ، لانه قام من مرقده وأخذ يفتش عن حواء برفق حتى لا
تستيقظ أمها اللعينة . وأخيرا عثر عليها جالسة خلف
« العشة » التي ابتناها لها آدم في صباح ذلك اليوم . اقترب
منها آدم ثم جذبها من يدها قائلا :

- ما تنظرين ؟ -

- تلك البقع البيضاء حول تلك الدائرة المشرقة ، أنا لم
أرها قبل اليوم . كانت الجنة مضياء ليلا ونهارا بطريقة
واحدة ، فما للدنيا تغير حالها بعد ساعات ؟ لقد كان منذ ست
ساعات قرص آخر يضيء الكون (؟ ؟) فما بال ذلك القرص
المضيء قد ذهب وحل محله هذا الذي - وإن كان جميلا - لكنه
لا يضيء كالآخر .

- أي نعم ، حواء ، أنا في حيرة وفي خوف إذ لو دام هذا
عوض الآخر لما أمكن لي أن أبتنى عندما أستيقظ غدا كوخا
آخر لي .

- أستبني كوخا لك ! وهذا كوخنا يسمعك لو أحبيت أن
تسكن معنا .

- حواء ! أتذكرين يوم خروجننا

- أي نعم ، آدم .

- يوم أن مسح لك قطرات الماء النازلة من عينيك .

- أي نعم ، آدم ، أذكر

- هلا أنزلت شيئا منها الآن لأمسحه لك .

- هي نازلة الآن فامسحها (بخبث) .

قال هذا والشرير يكاد يتطأ من عينييه . ثم انطوى على
نفسه .

وقال : « وجع يقطع امعائى . هذا من جراء تفاحك
يا غادرة ! » .

- : « وأنا أيضا ، يا آدم ! سنستأنس بهذا ، إنهم
يسمونونه مرض الفاض كما قاله القاضى . ولكن لا يجب أن
نعمل شيئا في الجنة إلا اذا » .

- : « يا خائنة ! هنا في الجنة ؟ أتريدن أن نعمل مخالفة
جديدة ؟ ومن هذا النوع القدر يا خائنة ؟ إن هذا المرض قد
أصابنا جزاء على جريمتك الأولى . وقد طردنا . هذا جزاء من
يستمتع إلى أقوال النساء ! إنهن لا يستحيين ولا ينبت على
وجوههن شعر ، أمثالك » .

- : « أجهشت بالبكاء ، وكالعادة ألقى برأسها على صدر
آدم . وانحصرت فيه حتى كادت تدخل في ضلعتيه الموجة .
فلان لها قلبه ، وجعل يلحس دمعها عن جفونها ، والدمع
يغلبه ، ويفيض على وجنتيها ، فيلحسه عن وجنتيها الملتهبة
بلسانه ، وقد نزلت على وجنتها دمة كبيرة . ثم سقطت على
شفتيها القرمزيتين . فمسح هذه الدمة بشفتيه ، ومع أنه قد
تطمع ملوحة هذا الماء ، فقد استعذبه . وما التصقت الأربع
شفاه حتى أحس أن المسكينة حواء قد ارتخت بين يديه ،
وكانت هذه أول قبلة وآخر قبلة في الجنة .

- 2 -

كانت نجوم السماء تلمع لمعانا أعجب آدم كل الاعجاب إذ
عمو لم يعهد النجوم في الجنة . لم ير آدم نجوما ولا ظلاما قبل
اليوم . ولم يكن ثمة ليل مظلم في الجنة . كانت الجنة كلها
نورا . ولقد طرب آدم نظلام الليل على الارض كل الطرب .

تعود آدم سكنى الارض وتعود صيد الوحوش ايضا . لكن شيئا واحدا يقلق آدم أكثر من غيره من الاشياء هو سقوط المطر فى بعض الاحيان ، وهجير الشمس فى أحيان أخرى ، فلماذا هذا التبدل من الضد الى الضد ! ثم ما هذه الدمدمة التى يسببها كلما أبطرت السماء بوابها أو طلها ؟ إنه لا يشبه هدير الجبل ولا أصوات الحيوانات الأخرى . . . من تراه يعبث لإقلاق الناس بهذا الصوت ؟ . . .

وكما تصور آدم صاحب هذا الصوت تراه يجرى نحو حواء التى تكون بالطبع فى بيتها فى ذلك الحين .

- إننى لا أراها .
- النور لا يكفى الآن لرؤيتها . ولكنى أحسها هنا (وهى تقض يدها على شفرتها السفلى) .

كان آدم يعلم أنها تكذب . ولكنه لم ير . أن يفتشها فأخذ يلص شفرتها بلسانه ، وكأنه وجد لذة فى لحسه شفرتها فأخذ يستعصمها مصا ، وكانت هى بدورها ترد له الفعل بمثله ، وهى متكئة على مرفق يديها . وكانت يده تحت عنقها . أزاح آدم برأسه لكى لا يمنع نور البدر الضئيل أن ينير وجهها فوجده أجمل مما كان عليه نهارا . قال - وهو لا ينتظر الا لشفتيها وأنفها الاقنى الجذاب وعينيها - كلمته الخالدة التى ما زال يردددها أحفاد أحفاده فى مثل هذا الموقف :
« آه لو دام هذا ! » .

كانت حواء تنصنع البكاء دائما لكى يمنح آدم دموعها بلسانه . وكانت تجد لذة فى إعادة العملية كلما أمكن لها ذلك .

وفى يوم كانت أم حواء تشرب الماء من « فلتة » كانت قرب بيتها ، وكانت ابنتها بجانبها تنسج شعر رأسها بأصابعها ، نظرت العجوز لسطح الماء فرأت صورة وجهها المجد لأول مرة : فلم تجده يشبه وجه ابنتها النضير فى شئ ولا حتى وجه آدم ، فبكت اذ ذاك - الفجوز المسكينة وبكت حتى فطنت ابنتها ليكانها ، فما أسرع أن ذهبت تستدعى آدم الذى كان جالسا فوق زبوة جادا فى سلخ جلد صنم قتله البارحة . ونادته بصوت يدوي رقة :

- آدم ! . . . أمى يسيل الماء من عينيها هيا آدم امسحه . . . لها .

5	تصدير
9	على الدواعي الكاتب البائر : تقديم عز الدين المدني
19	كنز الفقراء
24	جارتى
31	فى شاطئ حمام الانف
35	المصباح المظلم
43	راعى النجوم
55	احلام حدى
60	الركن النير
68	امن تذكر جيران بنى سلم
73	مجرم رغم أنفه
79	قتلت غالية
84	موت المم « باخير »
89	سهرت منه الليالى
94	الفرقة السابعة
101	نزعة راققة
121	أم حواء
123	مقدمة أم حواء
125	نهاية أعزب
134	مصادر القصص

مصادر القصص

مكان وتاريخ النشر

1	كنز الفقراء	المعالم الأدبى اوت	1935
2	جارتى	نشرية التطور الاجتماعى	1936
3	فى شاطئ حمام الانف	جريدة السورود سبتيمبر	1936
4	المصباح المظلم	القلم المشر 26 جوان	1938
5	راعى النجوم	المباحث جوان	1944
6	احلام حدى	المباحث جويلية	1944
7	الركن النير	النشرىا نوفمبر	1944
8	امن تذكر جيران بنى سلم	المباحث فيفري	1945
9	مجرم رغم أنفه	الاسبوع 24 ديسمبر	1945
10	قتلت غالية	الاسبوع 7 جانفى	1946
11	موت المم باخير	الاسبوع 21 جانفى	1946
12	سهرت منه الليالى	الاسبوع 11 مارس	1946
13	الفرقة السابعة	الاسبوع 26 ماي	1946
14	نزعة راققة	المباحث جوان - جويلية	1946
15	أم حواء	المفكر جويلية	1959